سورة النجم

دراسة أسلوبية بلاغية مضمونية

د. إبراهيم عوض

الطائف

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

سورة النجم

دراسة أسلوبية بلاغية مضمونية

د. إبراهيم عوض

الطائف

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

مقدمة

يضم هذا الكتاب أربعة فصول : فصل منها فى تحليل مضمون سورة « النجم » وأسلوبها لتحديد أهى مكية كما يقول جمهور علماء القرآن أم مدنية كما قال بعضهم . وفصل آخر يضم ملاحظاتى فى تفسير السورة والمسائل اللغوية والبلاغية المتعلقة بها . وفصل ثالث فى مناقشة قصة الغرانيق تتبعت خلاله ما قاله فيها العلماء المسلمون قديما وحديثا ، والحجج التى أدلوا بها ، ورأيهم فى السند الذى وردت به ، وتحليلهم لها من الناحية المضمونية والتاريخية . وقد درست فيه أيضا أسلوب الآيتين المزعومتين اللتين قيل إنهما دخلتا فى السورة أثناء تلاوة الرسول عليه السلام لها ثم حُذِفتا منها بعد ذلك، وبرهنت على أنهما ليستا من القرآن فى شىء . وفصل رابع ناقشت فيه فكرة « مراعاة الفاصلة فى القرآن »، التى يدعى بعض العلماء أنها قد تحققت فى القرآن الكريم فى عدد من الحالات على حساب الأصول المقررة ، وبينت أن مراعاة الفاصلة لا تتم فى القرآن على حساب القواعد والأصول الثابتة وإنما تتفق دائمًا معها . وقد طبقت ذلك على عدد من الأمثلة فى سورتنا خصوصًا وفى القرآن بوجه عام .

وأرجو أن يكون فى هذه الدراسة شىء من النفع وأن تكون أخطائى فيها قليلة . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

إبراهيم عوض

سورة « النجم » مكية أم مدنية ؟

القول الشائع أن « النجم » سورة مكية ، وإن كان هناك من يستثنى من ذلك قوله تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ... » إلى آخر الآية (١) ، أو تسع آيات (٢) من أول قوله تعالى : « أفرأيتَ الذى تولَّى * ... » . بَيْدَ أنه قد قيل أيضا إنها كلها مدنية ، ولكن رُدّ بأن ذلك شذوذ (٣) .

فأما الذين قالوا إنها مكية ، وهم جمهور علماء القرآن ، فإن موقفهم يتسق مع ما يحكونه من أنها أول سورة تلاها النبى عليه الصلاة والسلام علانية فى البيت الحرام بحضور المشركين ، وأنها قد نزلت ردًا على اتهاماتهم له بتقول القرآن (٤) .

ويقول سيد قطب إن « موضوع السورة الذى تعالجه هو موضوع السُّوَر المكية على الإطلاق : العقيدة بموضوعاتها الرئيسية : الوحى والوحدانية والآخرة . والسورة تتناول الموضوع من زاوية معينة تتجه إلى بيان صدق الوحى بهذه العقيدة ووثاقته ، ووهن عقيدة الشرك وتهافت أساسها الوهمى الموهون » (٥) .

والحق أن مكية السورة من الوضوح بمكان ، فإنها من أولها إلى آخرها ردّ على اتهام المشركين له صلى الله عليه وسلم بتخرص القرآن وتأكيد على أنه قد رأى جبريل رأى العين ما فى ذلك أدنى ريب . كما أنها هجوم شديد على بعض آلهة العرب الوثنية ، وتحقير لمنطقهم فيها ، ودعوة لهم إلى الدخول فى الإسلام وعبادة الله والسجود له ، وإنذار لهم أنهم ملاقون عذابًا شديدا إن لم يرعووا عما هم ماضون فيه . وكل هذا مما لا يُتَصَوَّر أن يكون قد نزل بالمدينة ، إذ موضوعات الوحى المدنى جِدّ مختلفة ، فقد كان الصراع بين معسكرى الإيمان والكفر آنذاك قد تطور وأصبح صراعا حربيا ، كما تطورت كذلك

أوضاع الجماعة الإسلامية بعد أن استقر الدين الجديد وصارت له دولة فاستلزم الأمر صدور التشريعات التى من شأنها تنظيم أحوال هذه الجماعة فى مجالاتها المختلفة من اجتماعية وسياسية واقتصادية ، وهو مالا وجود لشىء منه فى السورة . وكذلك ليس فيها أى ذكر لليهود ولا للمنافقين ، الذين كانوا يساكنون المسلمين فى المدينة ، وكانوا عاملا قويا من عوامل القلق هناك .

فإذا تحولنا إلى التحليل الأسلوبى للسورة وجدنا الآتى :

أن الفاصلة التى تنتهى بها آياتها (٦) ، وهى الفاصلة المقصورة ، هى فاصلة لم ترد إلا فى السور المكية ، كما فى معظم آيات سورة « طه » ، وكل آيات سورتى « الأعلى » « والليل » ، وبعض آيات سور « المعارج » و « الضحى » و « العلق » .

أن فى السورة قَسَمًا بأحد مظاهر الطبيعة ، وذلك فى قوله عز شأنه فى الآية الأولى : « والنجم إذا هوى » . وهذه سمة أسلوبية خاصة بالقرآن الذى نزل بمكة (٧) لا تجد شيئًا منها فى الوحى المدنىّ . وفضلا عن هذا لا يعرف القَسَم فى السُّوَر المدنية مجىء « إذا » بعده كما فى الآية التى بين أيدينا ، على حين قد ورد هذا فى القرآن المكى ، وذلك فى مثل قوله تعالى : « والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاّها * والليل إذا يغشاها » (٨) ، وقوله : « والليل إذا سجا » (٩) مثلاً .

أن تسمية الرسول عليه السلام بـ « صاحِبكم » (على ما جاء فى الآية الثانية) أو بـ « صاحِبهم » (والضمير المضاف إليه فى التسميتين عائد على مشركى قريش) هى تسمية لم ترد إلا فى الوحى الذى نزل بمكة . وقد ورد فيه هذا ثلاث مرات : « ما بصاحبكم من جِنَّة » (١٠) ، « وما صاحبكم

بمجنـون » (١١) ، « أولم يتفكروا ؟ ما بصاحبهم من جِنَّة » (١٢) .

وبمناسبـة الفعـل « ينطـق » الوارد فى الآية الثالثة نحبُّ أن نشير إلى أن مـادة « نطق » لم يأت شيء منها فـى القـرآن المدنـى البتـة . أما فـى المكـى فيجـد القـارىء اشتقاقاتها فى الأنبياء / ٦٣ ، ٦٥ ، والمؤمنون / ٦٢ ، والنمل / ١٦ ، ٨٥ ، والصافّات / ٩٢ ، وفُصّلت / ٢١ (مرتين) ، والجاثية / ٢٩ ، والذاريات / ٢٣ ، والمرسلات / ٣٥ .

كذلك فكلمة « هَوًى » (مفردةً) قد أتت ، من بين مواضعها التسعة فى القرآن الكريم (١٣)، ثمانى مرات فى المكىّ : الأعراف / ١٧٦ ، والكهف / ٢٨ ، وطه / ١٦ ، والفرقان / ٤٣ ، والقصص / ٥٠ ، وص / ٢٦ ، والجاثية / ٢٣ ، والنازعات / ٤٠ ، بينما لم تأت إلا مرة واحدة فى المدنى : النساء / ١٣٥ .

كذلك فكلمة « وَحْى » الموجودة فى الآية الخامسة لا وجود لها إلا فى القرآن المكى . أما الفعل « يُوحَى » (بالبناء للمجهول) الوارد فى نفس الآية فقد تكرر فى القرآن الكريم أربع عشرة مرة ، منها مرة واحدة فى الوحى المدنى ، وذلك فى الآية الثانية من سورة « الأحزاب » .

وفيما يتعلق بكلمة « استوى » فى الآية السادسة من السورة نجد أن أغلب ورودها إنما هو فى الوحى المكى ، إذ وردت فيه ثمانى مرات (١٤) ، بينما وردت فى المدنى مرتين اثنتين ليس إلا (١٥) .

كما وردت كلمة « الأفـق » ، عـلاوة على الآية السابقة من سورتنا ، مرتين فى القرآن (مرة مفردة ، ومرة مجموعة)، وكلتاهما فى سورة مكية : التكوير / ٢٣ ، وفُصِّلَتْ / ٥٣ .

أما كلمة « الأعلى » ، التى وُصِف بها « الأفق » فى الآية فقد تكررت فى القرآن المجيد ثمانى مرات (١٦) ، وكلها فى مواضع مكية : النحل / ٦٠ ، وطه / ٦٨ ، والروم / ٢٧ ، والصافّات / ٨ ، وص / ٦٩ ، والنازعات / ٢٤ ، والأعلى / ١ ، والليل / ٢٠ .

وأيضا فالتركيب الذى صُبّت فيه الآية العاشرة ، ونصها : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » ، وكذلك الآية السادسة عشرة : « إذ يَغْشَى السدرة ما يَغْشَى » والآية الرابعة والخمسون : « فغشّاها ما غشّى » ، وهو التركيب المؤلف من فعلٍ فاعله الاسم الموصول « ما » ، الذى جملة صلته فعلية فعلها هو نفس الفعل الأصلى (١٧) ، هذا التركيب لا يعرفه القرآن المدنى . وقد ورد فىّ سورة « طه » المكية : « إذ أوحينا إلى أمك ما يُوحَى » (طه / ٣٨) ، « فغشيهم من اليمّ ماغَشِيَهم » (طه / ٧٨) .

الفعل « كَذَب » الموجود فى الآية الحادية عشرة تكرر فى القرآن الكريم سبع مرات : مرة فى سورتنا هذه ، وخمسا من الست الباقيات فى سور مكية ، بينما ورد مرة واحدة فى سورة مدنية هى سورة « التوبة » (١٨) .

الغالب فى مادة « مرى » ورودها فى السور المكية ، إذ جاءت فيها ما بين أربع عشرة إلى سبع عشرة مرة (١٩) ، ولم تجىء فى السور المدنية إلا فى موضعين ، أو خمسة على أكثر تقدير .

كلمة « أخرى » منعوتًا بها ، كما هو الحال فى الآيات ١٣ و ٢٠ و ٤٧ من سورتنا ، جاءت ست مرات فى المكى : الأنعام / ١٩ ، والإسراء / ٦٩ ، وطه / ١٨ ، ٢٢ ، ٣٧ ، ٥٥ ، ومرة واحدة ليس غير فى المدنى : النساء / ١٠٢ .

كلمة « المأوى » (معرفة بـ « أل ») لم ترد إلا فى الوحى المكى :

السجـدة / ١٩ ، والنازعات / ٣٩ ، ٤١ ، إلى جانب الآية ١٥ من سورة « النجم » .

الموضعـان اللـذان ورد فيهمـا ذكـر شجـرة السِّـدْر ، إلـى جانـب سـورة « النجم » (٢٠) ، هما الآية ١٦ من « سبأ » ، والآية ٢٨ من « الواقعة » . وهما موضعان مكيَّان .

وردت مشتقات مادة « طغـى » فى الوحى المكى أكثر من خمس وعشرين مرة ، ولم ترد فى المدنى إلا فى ثلاثة مواضع أو أربعة على أكثر تقدير (٢١) .

لم يستعمل القرآن الكريم كلمة « الكبرى » ، خارج سورة « النجم » ، إلاَّ فى المرحلة المكية : طه / ٢٣ ، والدخان / ١٦ ، والنازعات / ٢٠ ، ٣٤ ، والأعلى / ١٢ . وحتـى جمعهـا « الكُبَـر » لم يُسْتَعْمـل إلا فـى سـورة مكيـة ، وهـى سـورة « المدثر » .

تركيب « أ (فـ) ـرأيتم ... ؟ » تركيب مكى خالص . ولم يأت إلا فى مواقف الخصام مع المشركين وتخطئة منطقهم وعقائدهم . وقد ورد هذا التركيب فى سورتنا فى قوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزّى * ومناة الثالثة الأخرى ؟ * ألكم الذكر وله الأنثى ؟ * تلك إذن قسمة ضِيزَى » (٢٢) . وقد تكرر هذا التركيب فى القرآن الكريم عشرين مرة غير آية سورة « النجم » .

عبـارة « أسمـاء سميتموهـا أنتـم وآباؤكـم » توجـد ، فـى غيـر سـورة « النجم » (٢٣) ، فى موضعين من مواضع الوحى الذى نزل بمكة : الأعراف / ٧١ ، ويوسف / ٤٠ .

كلمة « سلطان » ، مجرورةً ، كما فى الآية التى نحن بصددها ، لم تأت إلا فى المكّى (٢٤) : الأعراف / ٧١ ، وهود / ٩٦ ، ويوسف / ٤٠ ، وإبراهيم / ١٠ ، ١١ ،

٢٢ ، والكهف / ١٥ ، والمؤمنون / ٤٥ ، والنمل / ٢١ ، وسبأ / ٢١ ، والصافات / ٣٠ ، وغافر / ٢٣ ، ٥٦ ، والدخان / ١٩ ، والذاريات / ٣٨ .

عبارة « إن يتَّبعون / تتَّبعون إلا الظن » ، التى جاءت فى نفس هذه الآية ، قد وردت فى ثلاثة مواضع أخرى من القرآن كلها مكية : الأنعام / ١١٦ ، ١٤٨ ، ويونس/ ٦٦ .

تكررت كلمة « أُولَى » فى القرآن ست عشرة مرة ، غير المرات الثلاث التى وردت فيها فى الآيات ٢٥ ، ٥٠ ، ٥٦ من سورة « النجم ». وهذه المواضع الست عشرة ، ما عدا موضعا واحدًا (٢٥) ، كلها مكية . أما اقتران « الأُولَى » و « الآخرة » ، الذى تكرر فى القرآن ست مرات ، فلم يقع ، خارج الآية ٢٥ من سورة « النجم » ، إلا فى المرحلة المكية : الأعراف / ٣٨ ، ٣٩ ، والقصص / ٧٠ ، والنازعات / ٢٥ ، والليل / ١٣ ، والضحى / ٤ .

لم تُسْتَعْمل « كم » الخبرية (الموجودة فى الآية ٢٦ من سورتنا) إلا مرة واحدة فى القرآن المدنى ، وذلك فى الآية ٢٤٩ من سورة « البقرة » . أما فى الوحى المكى فقد تكرر استعمالها فيه عددًا غير قليل من المرات : الأنعام / ٦ ، والأعراف / ٤ ، والإسراء / ١٧ ، ومريم / ٧٤ ، ٩٨ ، وطه / ١٢٨ ، والأنبياء / ١١ ، والحج / ٧ ، والقصص / ٢٦ ، ويس / ٣١ ، وص / ٣ ، والزخرف / ٦ ، والدخان / ٢٥ ، وق / ٣٦ .

وكلمة « مَلَك » (مفردةً) لم ترد فى المرات الاثنتى عشرة خارج سورة « النجم » (نفس الآية السابقة) إلا فى قرآن مكى (٢٦) .

عبارة « إن ربك هو أعلم بمن ضل / يضلّ عن سبيله » ، التى وردت صيغتها

الأولى فى الآية ٣٠ من سورة « النجم » ، قد وردت فى القرآن الكريم ثلاث مرات أخرى : الأنعام / ١١٧ ، والنحل / ١٢٥ ، والقلم / ٧ .

أغلبية المواضع التى وردت فيها كلمة « الحُسْنَى » (وهى الكلمة التى وردت فى الآية ٣١ من سورتنا) تقع فى الوحى المكى .

عبارة « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش » ، التى وردت فى الآية ٣ من سورة « النجم »، جاءت مرة واحدة أخرى فى القرآن ، وكان ذلك فى نصّ مكى ، هو الآية ٣٧ من سورة « الشورى » .

عبـارة « بطون أمهاتكم » الموجودة فى الآية ٣٢ من السورة التى نحن بصدد دراستها وردت مرتين أخريين فى القرآن ، وذلك فى النحل / ٧٨ ، والزمر / ٦ . وهذان الموضعان مكيان .

عبارة « هو أعلم بـ ... » لم ترد ، خارج سورة « النجم » (وذلك فى الآية التى نحن بصددها : « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم، فلا تزكوا أنفسكم . هو أعلم بمن اتقى ») ، إلا فى نصوص من الوحى المكى : الأنعـام / ١١٧ ، ١١٩ ، والنحـل / ١٢٥ (مرتين) ، الأحقاف / ٨ ، القلـم / ٧ (مرتين) .

التركيـب التالى : « أ (ف) ـرأيت ... ؟ »، الذى ورد فى الآية ٣٣ من سورة « النجـم »، ورد أيضا فى تسعة مواضع أخرى كلهـا نصوص مكيـة : الكهـف / ٦٣ ، ومريم /٧٧، والفرقان / ٤٣، والشعراء / ٢٠٥، والجاثية / ٢٣، والعَلَق / ٩ ، ١١ ، ١٣ ، والماعون / ١ .

الفعل « أعطى » بصيغة الماضى المبنى للمعلوم الوارد فى الآية ٣٤ من السورة قد

ورد أيضا فى ثلاثة نصوص أخرى ، وكلها من القرآن المكى : طه / ٥٠ ، والليل / ٥ ، والكوثر / ١ .

الإنكار الاستفهامى أن يكون عند أحد معرفة بالغيب، الوارد فى قوله تعالى : « أعنده علم الغيب فهو يرى؟ » (٢٧) ، لم يجىء إلا فى نصوص مكية. وها هى ذى : أطَّلع الغَيْبَ أم اتخذ عند الرحمن عهدا ؟ » (مريم / ٧٨) ، « أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ » (الطور / ٤١ ، والقلم / ٤٧) .

وردت كلمة « الصُّحُف » ثمانى مرات فى القرآن : مرة فى « النجم » / ٣٦، وستًّا من السبع الباقيات فى نصوص قرآنية نزلت فى مكة : طه / ١٣٣ ، والمدثر / ٥٠، وعبس / ١٣ ، والتكوير / ١٠ ، والأعلى / ١٨ ، ١٩ ، ومرة واحدة فى نص مدنى : البينة / ٢ .

عبارة « لا تزر وازرة وزر أخرى » تكررت فى أربعة مواضع فى القرآن غير الآية ٣٨ من سورة « النجم » ، وكلها وحى مكى . وهى : الأنعام / ١٦٤، والإسراء / ١٥ ، وفاطر / ١٨ ، والزمر / ٧.

عبارة « ما سعى » ، التى جاءت فى الآية ٣٩ من السورة ، وردت مرة أخرى فى القرآن ، وكان ذلك فى نص مكى ، هو الآية ٣٥ من « النازعات » .

التركيب التالى : « ليس لـ ... إلاَّ ... » ، الموجود فى قوله تعالى من سورة « النجم » : « ليس للإنسان إلا ما سعى » (٢٨) ، ورد مرة أخرى فى القرآن ، وكان ذلك فى النصّ المكى التالى : « ليس لهم فى الآخرة إلا النار » (هود / ١٦).

لم تُضَفْ كلمة « سَعْى » إلى ضمير غيبة ، كما هو الحال فى الآية ٤٠ من سورتنا : « وأنَّ سعيه سوف يُرَى » ، إلاَّ فى نص قرآنى مكى : « سَعْيه »

(الأنبيـــاء / ٩٤) ، و « سَعْيهـــا » (الإســـراء / ١٩ ، والغاشيـــة / ٩) ، و « سَعْيهم » (الإسراء / ١٩ ، والكهف / ١٠٤) .

تكرر فعل الجزاء مبنيًا للمجهول فى القرآن ثلاثا وعشرين مرة . وفيما عدا الآية ٤١ من « النجم » : « ثم يُجْزَاه الجزاءَ الأوفى » ، فإنه قد ورد تسع عشرة مرة فى نصوص المرحلة المكية ، بينما ورد مرتين فقط فى النصوص المدنية .

كلمة « زَوْج » ، مثنَّاةً ، وردت فى القرآن سبع مرات : مـرة فى الآيـة ٤٥ مـن « النجـم » ، وخمسـا فـى الوحـى المكـى : هـود / ٤٠ ، والرعـد / ٣ ، والمؤمنـون / ٢٧ ، والذاريـات / ٤٩ ، والقيامة / ٣٩ . ثم مرة فى الآية / ٥٢ مـن سـورة « الرحمن » ، التى يقول فريق من علماء القرآن إنها مدنية ، ولكنها أسلوبا ومضمونا تشبه الوحى المكى .

تكرر ذكر « عاد » فى القرآن المجيد فى اثنين وعشرين موضعًا . وفيما عدا الآية ٥٠ سورة « النجم » نراها قد جاءت تسع عشرة مرة فى نصوص مكية ، على حين لم تأت فى المدنى إلا مرتين ، أو على أكثر تقدير ثلاثًا (٢٩) .

وكذلـك الأمـر مع « ثمود » ، الذين ذُكروا فى ستة وعشرين موضعًا فى القرآن الكـريم : منهـا مـرة فـى سـورة « النجـم » (الآيـة ٥١) ، ومرتان فى الوحى المدنـى (التوبـة / ٧٠ ، والحج / ٤٢) ، والباقى كله فى نصوص من الوحى المكى .

وبالمثل عبارة « قوم نوح » ، التى تكررت فى القرآن أربع عشرة مرة ، والتى كان نصيب المكى منها إحدى عشرة مرة ، والمدنى مرة أو مرتين على أعلى تقدير ، بالإضافة إلى الآية ٥٢ من سورتنا .

أفعل التفضيل « أظلم » تكرر فى القرآن فى ستة وعشرين موضعًا كلُّها مكية

إلا ثلاثة ، وذلك غير الآية / ٥٢ من سورة « النجم » .

وبالنسبة لقوله تعالى (فى الآية ٥٦ من السورة) : « هذا نذير من النُّذُر الأولى » نلاحظ وقوع كلمة « نذير » فيه خبرًا ، وهو ما لم يقع إلا فى نصوص القرآن المكية (٣٠) . كما نلاحظ أن كلمة « نُذُر » ، التى أتت فى القرآن المجيد ثلاث عشرة مرة (إلى جانب آيتنا هذه) ، لم ترد إلا فى الوحى المكى .

كذلك فكلمة « الآزفة » ، التى جاءت فى الآية ٥٧ من سورتنا ، إنما جاءت فى المرة الأخرى التى وردت فيها فى القرآن فى نص مكى ، وهو قوله تعالى : « وأنذِرْهم يوم الآزفة ... » (٣١) .

وفى الآية التى تلى ذلك تقابلنا كلمة « كاشفة » . وليس لمادة « كشف » وجود خارج نطاق الوحى المكى ، الذى وردت فيه مشتقاتها تسع عشرة مرة : الأنعام / ١٧ ، ٤١ ، والأعراف / ١٣٤ ، ١٣٥ ، ويونس / ١٢ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، والنحل / ٥٤ ، والإسراء / ٥٦ ، والأنبياء / ٨٤ ، والمؤمنون / ٧٥ ، والنمل / ٤٤ ، ٦٢ ، والزمر / ٣٨ ، والزخرف / ٥٠ ، والدخان / ١٢ ، ١٥ ، وق / ٢٢ ، والقلم / ٤٢ . وذلك إلى جانب الآية التى بين أيدينا .

كما يقابلنا فى الآية نفسها التركيب التالى : ليس لها من دون الله ... » . وهو تركيب لم يرد فى القرآن إلا مرتين أخريين ، وكان ذلك فى نصين مكيين ، وهما قوله تعالى فى الآية ٥١ من « الأنعام » : « ليس لهم من دونه (أى من دون الله) وليّ ولا شفيع » ، وقوله تعالى فى الآية ٧٠ من نفس السورة : « ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع » .

وننتقل إلى الآية التالية ، وفيها كلمة « الحديث » ، التى وردت فى القرآن

معرفة بـ « أل » خارج سورة « النجم » خمس مرات، وكلها مكية : الكهف / ٦، ولقمان / ٦ ، والزمر / ٢٣ ، والواقعة / ٨١ ، والقلم / ٤٤ .

وبالنسبة للفعل « عَجِبَ يَعْجَبُ » (الثلاثى المجرد) الوارد فى قوله تعالى : « أفمن هذا الحديث تَعْجَبُون ؟ » (٣٣) ، فقد لاحظتُ أنه لم يأت إلا فى المكى ، على حين أن الفعل « أَعْجَبَ يُعْجِبُ » (المزيد بهمزة) لا يجىء إلا فى القرآن الذى نزل بالمدينة . وقد سبق أن فصّلت القول فى هذا فى كتابى « سورة الرعد - دراسة أدبية وأسلوبية » (٣٣) .

ثم عندنا فى الآية التى تلى ذلك كلمة « تضحكون » . ومادة « الضحك » ، التى تكررت فى القرآن عشر مرات ، قد وردت من هذه المرات العشر ثمانى فى الوحى المكى ، ومرة يتيمة فى نص مدنى ، إلى جانب سورة « النجم » .

ونفس الشىء تقريبا ينطبق على كلمة « تبكون » الواردة فى نفس الآية ، إذ تكررت خمس مرات فى النصوص المكية ، ومرة فى سورة مدنية ، ومرة فى سورتنا .

وكذلك يغلب ورود الفعلين « اسجدوا » و « اعبدوا » فى المكى .

وبعد ، فمن الواضح أن أسلوب السورة تغلب عليه الصبغة المكية ، وهو ما يوافق الرأى القائل بمكيتها . وقد رأينا السمات المكية ظاهرة أيضًا فى الآيات التى اسْتُثْنِيَت وادُّعِىَ أنها مدنية . ويضاف إلى ذلك أن من غير المعقول أن يقال إن عثمان هو المقصود بقوله تعالى : « أفرأيت الذى تولى * ... ؟ » . ذلك أنه رضى الله عنه كان سمح النفس أريحيّها ، فكيف يزعم عليه زاعم أنه استمع لنصيحة أحد أقاربه فكفَّ يده المعطاء السحَّاحة عن مساعدة الفقراء والمحتاجين اعتمادًا على أن يحمل عنه ذلك القريب أوزاره يوم القيامه لقاء أن يدفع له عثمان مقدارًا من المال ؟ ثم ألم يكن الأَوْلى أن

يعطى هذا المال للفقراء مادام سيَخْرُج من يده فى الحالين ؟ وياليت الرواية وقفت عند هذا الحدّ ، إذ مضت فقالت إن عثمان لم يف بالاتفاق ، وأوقف الدفع بعد فترة قصيرة ! إن الآيات بإيقاعها وعنفها لا يمكن أن تكون موجهة لمؤمن حييّ نبيل النفس كعثمان رضى الله عنه، الذى كان أحد المؤمنين السابقين . كذلك فإن التركيب القرآنى « أفرأيت ... ؟ » حين يكون موجها إلى الرسول فإنما يكون فى الحديث عن الكفّار والنعى على ضلالاتهم . ولم يحدث أن ورد فى معرض الكلام عن أحد من المؤمنين . أمّا القول بأن هذه الآيات قد نزلت فى فرار عثمان يوم أحُد فهو سخف ظاهر ، إذ ليس فيها شىء عن القتال ، بل الكلام فيها عن التوقف عن العطاء والفهم الخاطىء لرأى الإسلام فى المسؤولية والجزاء (٣٤) . وقد أحسن سيد قطب ، رحمه الله ، إذ سارع فنفى ذلك عن عثمان ، رضى الله عنه ، قائلاً إن الذى يعرف عثمان وطبيعته وبذله الكثير الطويل فى سبيل الله بلا توقف وبلا حساب وعقيدته فى الله وتصوره لتبعة العمل وفرديته لا يقبل هذا الكلام عنه (٣٥) .

الهوامش

١- الآية / ٣٢ .

٢- الآيات / ٣٣ - ٤١ .

٣- انظر في ذلك، على سبيل المثال، تفسير القرطبي / دار إحياء التراث العربي / بيروت / ١٧ / ٨١ ، وتفسير الطبرسي / دار مكتبة الحياة / بيروت / ط ٢ / مجلد ٦ / ج ٢٧ / ٣٩ ، وتفسير الألوسي / دار إحياء التراث العربي / بيروت / ٢٧ / ٤٤ ، ومحمد الطاهر بن عاشور / تفسير التحرير والتنوير / الدار التونسية للنشر / ١٩٨٤ م / ٢٧ / ٨٧- ٨٨ .

٤- نفس المواضع من المراجع السابقة .

٥- سيد قطب / في ظلال القرآن / دار الشروق / ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦م / ٦ / ١٣٠٥ .

٦- جميعا ما عدا الخمس الأواخر . والآيتان الأوليان من هذه الخمس تنتهي باسم فاعل مؤنث : « الآزفة » و « كاشفة » ممّا لا وجود له في الوحي المدني ، أما المكي ففيه صدور سور « الواقعة » و « الحاقة » و « الغاشية » .

٧- ففيه القَسَم بالطور والذاريات والسماء والأرض والليل والضحى والشمس والقمر والفجر ومواقع النجوم .

٨- الشمس / ٢ - ٤ .

٩- الضحى / ٢ .

١٠- سبأ / ٤٦ .

١١- التكوير / ٢٢ .

١٢- الأعراف / ١٨٤ .

١٣- لم أَحْسُبْ ورودها في الآية الثالثة من سورتنا .

١٤- وذلك فضلاً عن آية سورة « النجم » .

١٥- انظر مواضع ورود هذه الكلمة في القرآن في « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن

الكريم » لمحمد فؤاد عبد الباقى .

١٦- عدا آيتنا هذه .

١٧- ومثله ، ولكن فى صورة جملة اسمية ، التركيب المكوَّن من مبتدإ معرف بـ « أل » خبره جملة اسمية مؤلفة من « ما » الاستفهامية وخبرها ، الذى هو المبتدأ الأصلى .

١٨- الآية / ٩٠ .

١٩- ذلك أن محمد فؤاد عبد الباقى يعدّ الآيات ١١٤ من « الأنعام » و ٩٤ من « يونس » و ٥٥ من « الحج » من الوحى المدنى ، على حين يغلب عندى أنها مكية .

٢٠- فى الآيتين / ١٤ ، ١٦ .

٢١- ارجع إلى مواضع ورودها فى القرآن المجيد إلى « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » .

٢٢- الآيات / ١٩ - ٢٢ .

٢٣- الآية / ٢٣ .

٢٤- ما عدا الآية ٣٣ من سورة « الرحمن » ، التى يعدها فريق من علماء القرآن مدنية ، وأرى أنها مكية .

٢٥- الأحزاب / ٣٣ . وقد حدث خطأ مطبعى أو سهو فى « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » فذُكِر أنها مكية ، مع أنها قد وردت فى آية تنصح أمهات المؤمنين بالبقاء فى بيوتهن وتجنب تبرج الجاهلية الأولى ، وهذا من الأمور المدنية كما هو معروف .

٢٦- وإن كان محمد فؤاد عبدالباقى يعدّ الآية ١٢ من « هود » مدنية ، ولا أظنها كذلك .

٢٧- النجم / ٣٥ .

٢٨- الآية / ٣٩ .

٢٩- انظر ذلك فى « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » .

٣٠- ماعدا الآية ١٢ من « هود » ، والآية ٤٩ من « الحج » . ولعلهما مكيتان أيضًا .

٣١- غافر / ١٨ .

٣٢- الآية / ٥٩ .

٣٣- انظر الفصل الأول منه .

٣٤- انظر الرواية التى تدعى هذه الدعاوى على عثمان رضى الله عنه فى « الكشاف » للزمخشرى / دار الفكر / بيروت / ٤ / ٣٣ ، و « مجمع البيان » للطبرسى / مجلد ٦ / ج ٢٧ / ٥٣ .

٣٥- انظر « فى ظلال القرآن » / ٥ / ٣٤١٤ .

ملاحظات فى تفسير السورة

أقسم الله سبحانه فى أول آية من السورة بالنجم . وقد قيل فى تفسير هذا اللفظ كلام كثير : فبعضهم قال انه اسم جنس ، أى أن الله سبحانه يقسم هنا بالنجوم إذا هوت ، أى غربت (وهذا معنى)، أو طلعت (وهذا معنى آخر) ، أو انطلقت فى إثر الشياطين لتحرقهم (وهذا معنى ثالث)، أو سقطت من مداراتها يوم القيامة (وهذا معنى رابع). وبعضهم قال : النجم هو الثريا دون النجوم كلها ، لأن العرب لم تكن تقول : « النجم » مطلقا إلا لهذا النجم (١) . وبعضهم قال : هو الشِّعْرى. وبعض قال : هو الزُّهَرة ، التى كان العرب يعبدونها . وبعضهم قال : بل هو كل وحى من القرآن ، إذ القرآن نزل مُنَجَّما ، أى مُفَرَّقا ، فالجزء الذى ينزل منه دفعة واحدة يسمى « نجما » . وبعض سادس على أن النجم هو النبى . وفريق سابع يقول إنهم الصحابة (ربما لما يروى عن الرسول من قوله : « أصحابى كالنجوم : بأيهم اقتديتم اهتديتم »). وفريق ثامن يقول : هم العلماء (لأنهم يرشدون الناس فى حيرتهم ويهدونهم إلى الحقّ ، كما يهدى النجم السارين فى ظلمات الليل) (٢) .

فأما بالنسبة لتفسير « النجم » بواحد أو طائفة من البشر فيبدو غريبًا ، إذ لم يُعهَد أن أقسم القرآن بإنسان ، اللهم إلا فى قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : « لَعَمْرُك إنهم لفى سَكْرتهم يَعْمَهون » (٣) ، وهذا غير ذاك ، إنّ رب العزة لم يقسم هنا بالرسول مباشرة ، بل أقسم بحياته . ولست أذكر أن العرب ، حتى فى جاهليتهم، كانوا يقسمون بإنسان قسمًا مباشرًا (هكذا : وفلان ») ، وإنما كانوا يقولون : « لَعَمْرُك » أو « لَعَمْرِى » . وهو ما لا يزال موجودًا على ألسنة الناس فى بعض

البـلاد ، إذ يقولـون : « وحيـاة فلان » أو « وحياتى عنـدك ». وكيف يقسم الله برسوله على صدق ذلك الرسول وبخاصة أن القَسَم موجّه إلى أناس لم يكونوا يؤمنون بذلك الرسول وكانوا يتهمونه بالكذب والضلال ؟

ثم ما السبب الذى يحدو بنا إلى النظر إلى « النجم » فى الآية على أنه رمز أو مجاز لواحد أو لفريق من البشر حتى نعدل به عن معناه الحقيقى إلى هذا المعنى الرمزى أو المجازى ؟

كذلك لا داعى لأن نُخْرِج هذه اللفظة عن معناها الشائع المعروف ونقول إن المقصود هو « النجم » من القرآن ، أى دفعة الوحى التى تنزل مرة واحدة ، وبخاصة أن القرآن الكريم على اتساعه لم يستعمل هذه الكلمة فى ذلك المعنى . ثم إن القرآن يستخدم للوحى الفعل « نَزَل » و « أنْزل » و « نزّل » ، ولم يستخدم قطّ الفعل « هَوَى » .

وأيضا يقال ذلك فى تخصيص النجم بالثريا أو الشِّعْرَى أو الزُّهَرة ، إذ لا دليل على هذا التخصيص. أما قول بعض المفسرين إن العرب لم تكن تقول : « النجم » مطلقًا إلا للثريا فليس يلزم عنه أن نقول فى كل مرة يستعملون فيها هذه الكلمة إنهم يقصدون بها الثريا ، وإنما معنى كلام أولئك المفسّرين ، وفيهم الطبرى رحمه الله ، أن العرب إذا استعملتها كعَلَم من الأعلام فإنما كانت تعنى بها مجموعة نجوم الثريا (٤). لكن يبقى بعد ذلك أنهم قد يستعملونها أيضا اسم جنس . وفى هذه الحالة يكون المعنى هو جنس النجوم . ويزيدنى نفورًا من هذا التخصيص أن نفسّره بالزُّهَرة أو الشِّعْرَى مما كان العرب يعبدونه ، فإنه ليس من المعقول أن يقسم الله سبحانه بشىءٍ يعبده المشركون ، وإلا كان قسمه ذاك مما يثبّت عبادته فى النفوس ويعوق انتشار دعوة الوحدانية التى أتى بها من

نزلت عليه سورة « النجم » والقرآن كله .

النجم إذن هو النجم بإطلاق ، أى جنس النجوم (٥) . وقد أقسم الله بـ « مواقع النجوم » فى سورة « الواقعة » (٦) . لكن ما معنى هُوِيِّها ؟ أهو انقضاضها على الشياطين التى تحاول استراق السمع ؟ إن الملاحظ أن كلمة « النجم » لا يستخدمها القرآن فى ذلك السياق أبدا ، وإنما يستعمل كلمة « شِهاب » ، وتكرر ذلك أربع مرات : « إلا من استرق السمع فأتْبَعَهُ شهاب مبين » (٧) ، « إلا من خَطِف الخطفة فأتْبَعَه شِهاب ثاقب » (٨) ، « فمن يستمع الآن يجد له شهابا رَصَدا » (٩) ، « وأنا لمسنا السماء فوجدناها مُلِئت حَرَسًا شديدا وشُهُبا » (١٠) . و « الشهاب » ، فى هذا السياق ، هو الجزء الذى ينفصل من النجم ويهوى فى الفضاء ، وليس هو النجم كلّه . من هنا فإنى لا أرتاح إلى هذا التفسير .

وأيضًا لا أجد مغزى للقسم بالنجوم فى حال غروبها . أما تفسير « هَوَى » بمعنى « طلع » فهو بعيد .

وأرى أن هوىّ النجوم إنما يكون يوم القيامة . وقد جاء ذلك فى أول سورة « التكوير » ، حيث يقول المولى عزّ شأنه : « إذا الشمس كُوِّرت * وإذا النجوم انكدرت » . ولعل المغزى فى القسم بالنجوم عندما تنخلع من مداراتها التى ظلت تدور فيها دهورًا طوالا لا يعلم مقدارها إلا الله سبحانه وتهوى فى الفضاء وينكدر ضياؤها وتحور رمادًا منثورًا بل هباءً منبثًّا إنما هو الإشارة إلى أن صناديد قريش ملاقون نفس المصير ، فلا يغرّنّهم ما هم فيه من قوّةٍ وتكتّل فى وجه الحق ، فإنهم لن يكونوا أقوى من النجوم ، ولسوف يفقدون بريقهم الذى يخوّله لهم غناهم وسلطانهم الاجتماعى .

وقد أقسم الله بالنجم على أنَّ محمدا عليه الصلاة والسلام فى إعلانه أنه رسول من رب العالمين وأن ما يتلوه عليهم من وحى إنما نزل عليه من السماء بوساطة جبريل هو صادق فيما يقول لم يضلّ ولم يَغْوَ ولم يتبع هوى نفسه فى شىء من ذلك . وقد فسَّر السيد عبد الله كنون الضلال بأنه ما كان بغير قصد ، والغىّ ما كان بقصد وتكسُّب (١١) . وهو تفسير وجيه .

وقد عبّر القرآن الكريم عن الرسول عليه السلام بـ « صاحبكم » ، وذلك فى قوله : « ما ضل صاحبكم وما غوى » (١٢) . وقد تكرر وصف الرسول بهذه التسمية فى القرآن ، وكان ذلك كله فى الوحى المكى . ذلك أن أهل مكة كانوا يعرفونه جيدا ، إذ صاحبوه وصاحبهم منذ ولادته فلم يكن شىء من حوادث حياته ولا أخباره ولا جوانب شخصيته بخافٍ عنهم . وهو نفسه الذى كانوا يلقبونه ، بعد عشرتهم الطويلة معه ، بالصادق الأمين . فلماذا إذن ، عندما جاءهم بالرسالة ووحى القرآن ، نُكِسوا على رؤوسهم وكذَّبوه واتهموه فى عقله وقالوا عنه : ساحر وكاهن وشاعر ؟ يريد القرآن أن يقول لهم إنه لا معنى لاتهامهم له بشىء من ذلك ، فهو صاحبهم الذى يعلمون كل شىء عنه ويوقنون تمامًا أنه ليس ساحرًا ولا شاعرًا ولا كاهنًا ولا مجنونًا ولا كذابًا ولا مخدوعا .

ويوجه أبو عبيدة حرف الجر « عَنْ » فى قوله عز وجلَّ عن رسوله عليه السلام : « وما ينطق عن الهوى » (١٣) إلى أنه بمعنى « الباء » (١٤) ، أى أن أصل المعنى عنده هو « وما ينطق بالهوى » ، وهو ما يوحى بأنهم كانوا يقولون إنه ينطق الهوى ، أو إن الهوى مصاحبٌ لنطقه . وذلك على عكس ما يقول قتادة من أن « عن » هنا على معناها . وليس فى القول بنيابة حرف جر عن غيره شىء . لكن المهمَّ أن يكون

هناك ما يدعو إلى القول بذلك . فهل فى الآية شىء من هذا ؟ لا أعتقد ، إذ إن القرآن ينفى أن يكون النبى فيما ينطقه ، أى فيما يتلوه على قومه من الآيات والذكر الحكيم ، صادرًا عن الهوى . فحرف الجر « عن » إذن فى موضعه ، ولا داعى لتأويل معناه .

وفى وصف القرآن لكمة « وَحْى » بالفعل « يُوحَى » (فى قوله جل شأنه : « إنْ هو إلاَّ وَحْىٌ يُوحَى ») تأكيد . فالمعنى إذن : « إن هو إلا وحى أكيد لا ريب فى ذلك » .

وينقسم المفسرون فريقين أمام الفاعل فى قوله : « علَّمه شديد القوى » (١٥)، إذ يرى الجميع تقريبا أن المقصود بـ « شديد القوى » جبريل ، بينما يرى الحسن أنه هو الله سبحانه وتعالى (١٦) . ومن الغريب أن يقول قائل إن المعنىّ بالكلام فى الآيات التالية : « شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى » هو الله سبحانه . إن الصفات هنا منكرة ، فكيف يمكن أن يتكلم القرآن عن رب العزة بصيغ التنكير هذه دون أن تسبقها كلمة « رب » أو « إله » ؟ وكيف أيضا يوصف الله سبحانه بأنه كان بالأفق الأعلى وأنه دنا بعد ذلك ثم تدلىَّ حتى كاد يلاصق الرسول ؟ إن الله ليس متحيزا حتى يجوز وصفه بذلك ، تعالى الله عن هذا علوا كبيرا !

وقد وُصف جبريل فى موضع آخر من القرآن بـ « ذى قوة عند ذى العرش مكين » (١٧)، كما ذُكر أن الرسول عليه السلام قد « رآه بالأفق المبين » (١٨). وهو ما يتوافق مع جاء فى سورتنا هذه .

ويرى بعض المفسرين أن « الواو » فى قوله سبحانه : « فاستوى وهو بالأفق

الأعلى » (١٩) عاطفة ، أى أن جبريل قد استوى بالأفق الأعلى هو والرسول . لكن الأسلوب على هذا التفسير يبدو ركيكًا ولا يشبه أسلوب القرآن الفخم الجليل . هل يقبل الذوق قولنا مثلاً : « أكل وهو » أو « نام وهو » أو « انتصر وهو » ، بحذف الفاعل وعطف ضمير عليه ؟ إن التركيب فى مثل هذا الحالة يكون كالآتى : « أكل هو وفلان » بإظهار الضمير ثم عطف اسم ظاهر عليه ، أو « أكل وفلان » بحذف الضمير وعطف الاسم الظاهر عليه. أمّا « أكل وهو » فتركيب غريب وركيك (٢٠) . ثم لو كان المراد أنهما استويا معًا بالأفق الأعلى ، فلماذا أُفْرِد الفاعل بعد ذلك فى « دنا » و « تدلى » و « كان (قاب قوسين أو أدنى) » و « أَوْحَى (إلى عبده ما أَوْحَى) » ؟ هل ترك جبريل الرسول عليه السلام وراءه بالأفق الأعلى ودنا وتدلَّى هو وحده ؟ ولكن دنا ممن ؟ وتدلَّى نحو من ؟ وأى شخص ذلك الذى أوحى إليه ما أوحى ما دام قد ترك الرسول وراءه بالأفق الأعلى ؟ المقبول أن تكون جملة « وهو بالأفق الأعلى » حالاً من فاعل « استوى » ، أى أن جبريل عليه السلام قد استوى عندما كان بالأفق الأعلى ، قبل أن يدنو فيتدلى حتى أصبح على مبعدة نحو قوسين من الرسول صلى الله عليه وسلم .

جبريل إذن هو الذى استوى بالأفق الأعلى . ولكن ما الأفق الأعلى ؟ بعضهم قال : هو مطلع الشمس. وبعض قال إنه الأفق الذى فوق جانب المغرب فى صعيد الأرض لا فى الهواء (٢١). ولكن إذا كان فى الأرض لا فى الهواء فكيف وُصِف بـ « الأعلى » ؟ وكيف تدلَّى جبريل منه ، والتدلى إنما يكون من علوٍّ إلى سفل ، وهو كان فى سفل فعلا ؟ كذلك لا أدرى لم حدّده البعض بأنه مطلع الشمس أو فى المغرب. إن القرآن لم يقل ذلك ؟ كل ما يمكن أن نقوله هو أن الأفق قد يكون سفليا ، وهو الذى

يكون عند التقاء خط السماء بخط الأرض ، وقد يكون علويا ، وهو الذى لا يتصل بالأرض . وأعلى الآفاق أبعدها عن الأرض . وأحسب أن هذا الأخير هو المراد . أما فى أية جهة فهذا مالم نكلَّف ببحثه . ويغلب أن تكون الإشارة إلى ظهور جبريل للرسول عليه الصلاة والسلام بالأفق الأعلى حين كان الرسول يتحنث فى غار حراء ففوجىء برؤية جبريل فى السماء ثم بدنوه منه وتدليه إليه حتى أصبح منه قاب قوسين أو أقلّ .

والاستواء إذا كان متعلقا بوضع الشخص فإنه يكون حسب ذلك الوضع حينئذ ، فإذا كان الشخص نائمًا قيل : استوى جالسًا ، إما إذا كان جالسًا فيقال : استوى واقفًا ، أى اعتدل ، بحيث تكون حركته انتقالاً من الأسفل إلى الأعلى . ومن معانى « الاستواء » الاستقامة ، وكذلك الاستقرار . وقد يعنى « التوجه » إلى مكانٍ أو شىء ما .

ونقف عند حرف العطف « أو » فى قوله تعالى : « فكان قاب قوسين أو أدنى » ، الذى يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور إنه هنا « للتخيير فى التقدير ، وهو مستعمل فى التقريب . أى إن أراد أحد تقريب هذه المسافة فهو مخيَّر بين أن يجعلها قاب قوسين أو أدنى ، أى لا أزْيَد » (٢٢) . ورأيى أنه ليس فى المسألة تخيير ، لأن المسافات من الثوابت فلا تخيير فيها . وكذلك ليس فيها تردد أو شك ، لأنه تعالى فوق الشك والتردد . وإنما المعنى ، فيما يبدو لى ، هو أنكم إذا شاهدتم ذلك قدَّرتموه بأبصاركم بما بين هذا وذاك . أى أن « أو » تعبِّر عن إحساس الرائى من البشر لو اطَّلع على الأمر ، لا عن تردُّد فى التقدير من جانب المولى سبحانه ولا عن تخيير .

والضمير فى « عبده » يعود على رب العزة والجلال ، أى أن جبريل قد أوحى إلى عبد الله ، وهو الرسول عليه السلام ، ما كلفه الله أن يوحيه إليه . وهذا

التركيب : « فأَوْحَى إلى عبـده ما أَوْحَى » ، بما فيه من إبهام لمفعول « أوحى » الأولى ، يُقْصَد به إلى التهويل وترك عقول الكفار متحيرة مشدوهة .

وقد يتساءل متسائل : لماذا قيل : « ما كذب الفؤاد ما رأى » ، ولم يُقَلْ : « ما كذبـت العين ما رأت » ؟ ويبدو لى أن السبب فى ذلك هو أن العين لا تكذب ، بل تؤدى الصورة كما هى ، وإنما مراكز الإدراك فى المخ (وهو ما أطلق القرآن عليه « الفؤاد ») هى التى يمكن أن تترجم ما يصل إليها من العين ترجمة خاطئة فيتوهم الشخص رؤية شىء آخر غير الذى رآه .

ولقد رأى الرسول عليه السلام جبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى ، وكان ذلك فى السَّماء عند سدرة المنتهى ، التى يقول المفسرون عنها إنها هى الحد الفاصل الذى لا يستطيـع أحـد تجـاوزه ولا يَعْلَـم الملائكـة ولا غيرهم ما وراءها (٢٣) ، إذ عِلْمُ ما هناك مقصور على الله وحده عز شأنه .

وهذه السدرة كان يغشاها آنذاك ما يغشاها مما لم تحدده الآيات الكريمات . ويخبرنا القرآن أن بصر الرسول عندئذ ما زاغ ولا طغى . ولعلَّ المعنى أنه قد تحقق جيدا من تلك السدرة ومما كان يغشاها ، إذ لم ينحرف بصره يمينًا ولا يسارًا ولا توهَّم ما لا وجود له ، بل رأى فعلا بعضا من آيات ربه الكبرى . ويضيف الشيخ الطاهر بن عاشور قائلا : « الزيغ : الميل عن القصد . ما مال بصره إلى مرئى آخر غير ما ذكر . والطغيان : تجاوز الحد » (٢٤) . وهو لا يقع بعيدًا مما قلت .

ويأتى بعد ذلك اللات والعزّى ومناة ، وهى الأصنام التى كانوا يقولون إنها ملائكة وإنها بنات اللَّه ، تعالى الله عن ذلك . ويقول بعض علماء التفسير إن العرب قد اشتقوا لهذه الأصنام أسماءً من أسماء الله عز وجل ، فاللات هى مؤنث الله ، والعُزَّى

مؤنث العزيز (٢٥) .

ولست أعتقد صحة هذا الكلام ، فليست اللات مؤنث اللّه كما هو بيِّن ، إذ أين فيها علامة التأنيث التى أضيفت إلى لفظ الجلالة ؟ وهل علامة التأنيث فى الأسماء تاء مفتوحة ؟ وأين ذهبت هاء « الله » ؟ كذلك فمؤنث « العزيز » هو « العزيزة » لا « العُزَّى ». وإنى لأتساءل : هل كان العرب فى الجاهلية يصفون اللّه سبحانه بـ « العزيز » أصلاً ؟ ثم مناة ، ما علاقتها بأسماء الله وصفاته ؟ واضح أن القول باشتقاق العرب أسماء هذه الأصنام من أسماء الله هو قول متعسف .

وعن « أرأيتم » (فى قوله : « أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ ») يقول الشيخ ابن عاشور إنها أكثر ما تكون للرؤية البصرية (٢٦) ، مع أنها فى أغلب الحالات التى وردت فيها فى القرآن (٢٧) قد أتت بمعنى : « ما رأيكم ؟ » أو « هل فكرتم فى الأمر الفلانى ؟ » . ومعنى الكلام هو : هل فكرتم فى هذه الأصنام التى تشركونها بالله وما تزعمونه من أنها إناث وأن الله قد اتخذها بنات له سبحانه ؟

وبالنسبة لجعل العرب للّه بنات فى الوقت الذى ينفرون فيه من ذرية الإناث ويشعرون تجاههن بالعار وتسودّ وجوههم ، حتى إن بعضهم يئدونهن فيضعونهن فى حفرة ويهيلون عليهن التراب ، يسألهم القرآن متهكما ومقرعًا : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ ». ثم يعقب ذلك بتهكم وتقريع آخرين : « تلك إذن قسمة ضِيزَى » (٢٨) ، أى ظالمة مجحفة . وليس معنى هذا أنه كان يريد منهم أن يجعلوا له الذكور ويأخذوا هم الإناث مثلاً ، بل المقصود لَفْتهم إلى سخف عقولهم حتى فى إشراكهم ، إذ يدّعون لله ما لا يرضونه لأنفسهم مرتكبين بذلك سخفين : سخف

الإشراك، وسخف نسبة الإناث ، اللائى يضيقون بهن أشد الضيق ، إليه سبحانه. ويلفت النظرَ تلك اللفظةُ الغريبة الثقيلة التى استعملها القرآن لوصف هذه القسمة المجحفة ، وهى لفظة « ضِيزى » فهى تناسب ما وُضِعت له ، إذ ما أثقل وأغرب وأسخف ذلك الإجحاف !

وعن الأصنام وتسميتها بأسماء الإناث وجعلها بناتٍ للّه يقول الله تعالى أيضا : « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم . ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتّبعون إلا الظن وما تَهْوَى الأنفس . ولقد جاءهم من ربهم الهُدَى » (٢٩) . والمعنى أن ذلك كلّه ليس إلا كلاما لا حقيقة له ، فليس الملائكة إناثًا ، وليس لله بنات. ولا يعدو الأمر أن يكون مجرد أوهام ، أو كما نقول اليوم : كلام فارغ ، أى كلام خالٍ من المضمون ، لأنه لا وجود له خارج الذهن . ولذلك قال القرآن : « إن يتّبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » . وليست الحياة تقوم على الأوهام والأهواء ، بل على الحقائق الصُّلبة . وكم من أوهام وخرافاتٍ تعشش فى أذهان الناس وتبلبل حياتهم وتشقيهم وتكلفهم جهدا ومالاً طائلاً ! وإن اعتقاد فريق من الناس فى صحتها لا يجعلها صحيحة . والوضع السليم أن يكون الاعتقاد تابعًا لوجود الشىء لا أن يكون وجوده هو الذى يتبع ما يعتقده الناس. والملائكة هم جزء من عالم الغيب ، الذى لا يطّلع عليه أحد من البشر إلا بوحى من الله تعالى . ومشركو مكة لم يكونوا متصلين بالسماء ، بل ولم يدّعوا ذلك مجرد ادعاء ، فمن أين لهم إذن بأن الملائكة إناث وأنهم بنات الله وأنهم يشفعون لهم، إذا كان الله نفسه يقول غير ذلك ؟

ثم تعقّب السماء قائلة : « أم للإنسان ما تمنى ؟ » ، أى أن المسألة ليست مسألة أمنيات يتمناها الإنسان ، فالحقائق الثابتة لا تغيرها الرغبات والأحلام . هل

لمجرد أن بعض الناس قد يتمنَّوْن أن تكون « واحد زائد واحد » تساوى أربعة مثلاً تصبح فعلاً « واحد زائد واحد » تساوى أربعة ؟ كلا . ذلك أن حاصل الجمع هو اثنان مهما فعل الإنسان ومهما تمنى . وفى اللغة الإنجليزية تعبير يؤدى هذا المعنى تقريبا وهو «wishful thinking» . ويوصف به التفكير الذى يتجاهل الحقائق والوقائع ، ويقوم على مجرد الأحلام والتمنيات . وقوله : « أم للإنسان ما تمنى ؟ » إضرابٌ عما سبق من كلام واستفهامٌ إنكارى معًا . وجاء فى « الكشاف » أن الهمزة فى « أم » للإضراب (٣٠) . ولست أدرى كيف يكون ذلك ، فالهمزة والميم تشكلان معًا كلمة « أَمْ » ، وهى كلها للإضراب (وكذلك للاستفهام الإنكارى أيضا كما قلت) لا الهمزة فقط ، وإلاَّ فماذا تكون الميم وحدها ؟

ويرد الله سبحانه قائلا إنه ليس للإنسان شىء من أمور الكون « فلله الآخرة والأولى » (٣١) ، أى أن الأمور كلها له وحده سبحانه أوّلاً وآخرا ، فى الدنيا والآخرة ، لا يستطيع أحد أن يسبقه بشىء أو يعقب عليه بشىء ، فحكمه شامل ، وإرادته مطلقة ، ولا رب سواه ، وما يتمتع به الإنسان من نعم فإنما هى من عطائه الكريم .

وتفنّد الآية / ٢٦ ، ونصها : « وكم من مَلَك فى السماوات لا تُغْنِى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » ، ادعاء الكفار أن اللات والعزى ومناة هى شفعاؤهم عند اللّه ، فتحسم لهم القضية قائلة إنه حتى الملائكة فى السماوات لا يستطيعون أن ينفعوا أحدًا بشفاعتهم إلا إذ أذن الله لهم بالشفاعة وقبلها منهم (٣٢) . ومُفاد هذا أن المشركين فى إثبات الشفاعة لأصنامهم واهمون تمام الوهم ، إذ ماذا تكون هذه الأصنام جنب الملائكة ؟ بل كيف تستطيع هذه الجمادات التى لا تحسُّ ولا تعقل أن تتوسط بالشفاعة للبشر ؟ ثم فلنفترض أنها تحسُّ وتعقل ، فمن ذا الذى أذن لها

بهذه الوساطة ؟

ثم تعود الآيات إلى النَّعْى على المشركين لتأنيثهم الملائكة ، لا بناء على علم ، بل على ظنونٍ وأوهام مما لا يغنى من الحق شيئًا ، وتنصح الرسول عليه السلام أن يُعْرِض عمن تولى عن ذكر اللَّه وجعل الدنيا كل همّه ومراده : « فأَعْرِضْ عمن تولَّى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » (٣٣) .

وليس الإعراض أن يكف الرسول عليه السلام عن دعائهم إلى الحقّ والاجتهاد فى هدايتهم (٣٤) ، فالرسل لا يعرفون اليأس فى مهمتهم الربانية ، وإنما الإعراض هو عدمُ المبالاة بعنادهم وافتراءاتهم أو الحزن بسبب كفرهم وجحودهم، والمضىُّ قُدُمًا فى سبيل الدعوة لا يَثْنيه عن عزمه فيها شىء . والدليل على أن هذا هو المراد بالإعراض هنا أنه سبحانه يقول لرسوله فى موضع آخر من القرآن عن فريق ممن يدَّعون الإسلام ولا يريدون فى ذات الوقت الاحتكام إلى رسول الله والتشريع الذى جاء به : « فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغًا » (٣٥) . فلو كان الإعراض هو الانصراف عنهم وعدم الاهتمام بهدايتهم ما قال القرآن له فى الوقت نفسه : « عظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغًا ». ويقول عزّ وجل أيضا : « فاصدع بما تُؤْمَر، وأَعْرِضْ عن المشركين » (٣٦). ولو كان الإعراض هو الانصراف عن المشركين فلمن إذن سيصدع بما أُوحِى به إليه وقد كان عليه السلام لا يزال فى أول المطاف ؟ وذلك فضلا عن أنه صلى الله عليه وسلم لم ينصرف يومًا عن الدعوة إلى الإسلام منذ أن بُعث إلى يوم أن قبضه ربه إليه. ثم إنه لو انصرف فى مكة عن دعوة المشركين ومحاولة هدايتهم فإن نطاق الدعوة كان سيضيق أشد الضِّيق . وقد تنبه الطبرسى إلى هذا فقال فى تفسير الآية : «لا تقابلهم على أفعالهم واحتملهم ، ولا تدع مع هذا وعظهم

ودعاءهم إلى الحق » (٣٧) . كما فصَّل الشيخ ابن عاشور القول فى هذا بعض الشىء ، إذ قال : « وإعراض النبى صلى الله عليه وسلم عنهم المأمور به مراد به عدم الاهتمام بنجاتهم لأنهم لم يقبلوا الإرشاد ، وإلا فإن النبى صلى الله عليه وسلم مأمور بإدامة دعوتهم للإيمان. فكما كان يدعوهم قبل نزول هذه الآية فقد دعاهم غير مرة بعد نزولها . على أن الدعوة لا تختص بهم فإنما ينتفع بها المؤمنون . ومن لم يسبق منه إعراض من المشركين فإنهم يسمعون ما أُنْذِر به المعرضون ويتأملون فيما تصفهم به آيات القرآن . وبهذا تعلم ألا علاقة لهذه الآية وأمثالها بالمتاركة ولا هى منسوخة بآيات القتال » (٣٨) . يشير الشيخ بهذا إلى ما يقوله بعض المفسرين مثل القرطبى (٣٩) وأبى حيان (٤٠) وتاج الدين القيسى (٤١) من أن قوله تعالى : « فأعرض عمن تولّى عن ذكرنا » يعنى موادعتهم ، أى عدم قتالهم ، وأنه قد نسخته آية السيف (٤٢) .

وفى الآيتين / ٣١ - ٣٢ يقول تعالى ذكره : « ليَجْزِى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى * الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللَّمَم. إن ربك واسع المغفرة . هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجِنّة فى بطون أمهاتكم، فلا تزكّوا أنفسكم. هو أعلم بمن اتقى ». وفى « الحسنى » يكتفى بعض المفسرين ومترجمى القرآن بالقول بأنها « أحسن شىء » ، والبعض يحددها بأنها الجنة. ورأيى أنه لا تعارض بين التفسيرين ، إذ ليس ثمة ما هو أحسن من الجنة . وكذلك يلفت الانتباه أن الآيتين قد حددتا « الذين أحسنوا » بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم. وأيا ما يكن معنى « اللمم » فإن الإسلام ، كما هو واضح، لا يتطلب من أتباعه أن يكونوا ملائكة أطهارًا لا يعرفون الإثم ولا يقارفونه.

لقد حسم الرسول صلى اللـه عليـه وسلم الأمر فقال : « كل بنى آدم خطّاء ، وخير الخطّائين التوابون » . ذلك أن الإسلام هو دين الله ، الذى خلق الجنس البشرى وجعل فى أفراده قابلية الطاعة والعصيان وعَمَل الحسنات واجتراح السيئات ، فهو عز شأنه يعلم بحقيقتهم منذ البداية حين جبلهم من طين الأرض ، وكذلك وهم لا يزالون قطَعًا من اللحم فى ظلام أرحام أمهاتهم . ومعنى « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجِنّة فى بطون أمهاتكم » أنه العالم الوحيـد بكم فى هاتين الحالتين . ولست أظن أن « أعلم » على هذا المعنى للتفضيل ، إذ لا يشارك الله فى علمه بنا فى هاتين الحالتين أحد غيره حتى نقول إن الله أعلم منه ، إلا إذا قلنا إن « إذ » فى الآية على السببيـة ، ففى هذه الحالة يمكن أن يكون معنى الآية أن اللّه أعلم بنا من غيـره ، إذ هو الذى أنشأنا من الأرض وخلّقنا أجنةً فى بطون أمهاتنا . ولذلك نرى القرآن يتحدث كثيرا عن واسع غفرانه سبحانه ويؤكد أنه يعفو عن كثير بل يغفر الذنوب جميعًا ، وأن رحمته وسعت كل شىء . وأعتقد أنه لهذا السبب ذاته نجد فى القرآن أن الله يجزى على السيئة بمثلها (هذا إن آخذ بها ولم يغفرها) ، أما الحسنـة فيجـزى عليها بعشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف إلى ما هو أكثر من ذلـك .

ويفسّر بعض المفسرين « اللَّمَم » بأنه ما وقع من المؤمنين فى الجاهلية قبل أن يُسْلِموا . وبعضهم قال إنه ما يُرْتَكَب من الفواحش عن غير قصد ، أو ما يُلمّ به الإنسان فيتوب منه ولا يجعله ديدنه . وفريق حدّده بأنه الذنوب الصغيرة ، وهى التى ليس فيها حدّ ولم يتوعد الله عليها بعذاب أخروى (٤٣) . فإن قلت إنه هو صغار الذنوب كان إعراب « إلا اللَّمَم » على أنه استثناء منقطع ، لأنه لا يدخل حينئذ فى « كبائر الإثم والفواحش » . أما إن قلت إنه ما يرتكبه الإنسان من الكبائر والفواحش عن غير قصد

أو ما يلم به منها ثم يتوب منه فهو آنئذ استثناء متصل.

وتشير الآيات بعد ذلك دون تحديد ، كعادة القرآن ، إلى ذلك « الذى تولى * وأعطى قليلاً وأكْدَى » (٤٤). وأكثر التفسيرات إقناعًا هو أنه أحد الكفار الذين أسلموا أو قاربوا أن يسلموا ، لكن صديقًا له صدّه عن ذلك وزعم له أنه إن عاد إلى الكفر فإنه يحمل عنه ذنوبه إذا كانت هناك ذنوب، وذلك فى لقاء راتب من المال ، فصدَّقه وكفر. ثم بعد أن دفع له بعض الرواتب سرعان ما توقف عن الدفع . فالقرآن يتهكم بهذه العقلية التى تعتقد أن أمر الحساب هو أمر شراء وبيع وأن الإنسان يستطيع أن يفتدى نفسه من عذاب الكفر بدفع مبلغ من المال. ويا ليته داوم على الدفع واحترم الميثاق رغم سخفه وسماجته ولامنطقيته. والقرآن يلفت ذلك الكافر إلى أمرين مهمين : الأول : أنه لا أحد من المخلوقات يعلم الغيب . فكيف عرف ذلك الذى كفر على أن يحمل صديقه عنه ذنوب كفره أن الله سيقبل هذا الاتفاق وينقل آثامه وسيئاته إلى صحيفة ذلك الصديق ؟ والثانى : أن كل نفس بما كسبت رهينة. ولا يقل أحد إن هذا مبدأ إسلامى، ومن ثمَّ لم يكن عند ذلك الكافر علم به لأنه لم يكن قد دخل فى الإسلام أو على الأقل لم يتوغل فيه ويُحِط بمبادئه. ذلك أن هذا المبدأ موجود فى صحف موسى بل فى صحف إبراهيم من قبله بأحقاب وأحقاب : « أعنده علم الغيب فهو يَرَى ؟ * أم لم يُنَبَّأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفَّى * ألا تزرُ (٤٥) وازرةٌ وزْرَ أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يُرَى * ثم يُجْزَاه الجزاءَ الأوفى ؟ » .

ويرى بعضهم أن قوله تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم » (٤٦) قد استَثْنَى من ذلك المبدإ الأبناء الذين يُدْخلهم الله الجنة بصلاح آبائهم، أى أن هذه الآية ناسخة لتلك (٤٧) . والواقع أنه لا استثناء ولا نسخ ، فقد

دخل الأبناء الجنة ، بنص الآية ، بسبب إيمانهم، بالضبط مثلما كان إيمان آبائهم سببا فى دخول أولئك الآباء الجنة. ويمكن أن يُفْهَم الحديث القائل : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به » وأمثاله على أن « الولد الصالح » هو من سعى الإنسان ، فهو الذى ربَّاه وهذَّبه وأدَّبه. فإذا دعا له ذلك الولد الصالح كان دعاؤه نتيجة عمل الأب فيه من قبل (٤٨). أو يمكن القول بأن الله سبحانه بواسع رحمته لا يعاقب الإنسان ، إن عاقبه، إلا على ذنوبه هو. أما إثابته له فذلك راجع إلى رحمته وكرمه وفضله ، وهو الكريم الرحيم ذو الفضل العظيم . وهو بهذا لم يظلم عباده فى شىء ، بل ولم يعدل معهم فقط، وإنما زاد فرحمهم. والرحمة خطوة أو خطوات وراء العدل. وهذا لا يفترق عن مضاعفة الله حسنات المحسنين إلى عشر أمثالها بل إلى سبعمائه ضعف بل إلى ما فوق ذلك. فهذا كله من فضل الله ومنّه وعطفه على عباده ورأفته بضعفهم وحنانه عليهم. ولو أعطاهم على قدر ما أحسنوا ما ضاعف لهم . وقد قال الحسين بن فضل لعبد الله بن طاهر يشرح له قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » : « معناه أنه ليس له إلا ما سعى عَدْلاً ، ولى أن أجزيه بواحدةٍ ألفًا فضلا » (٤٩). ولعلَّ هذا كله مُوَمأ إليه فى عبارة « الجزاء الأوفى » فى قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يُرَى * ثم يُجْزَاه الجزاءَ الأوفى » ، أى الجزاء الأحسن للعبد . وهل ثمَّ ما هو أحسن من أن يُقْتَصَر فى عقابه على قدر ذنبه إن لم يُغْفَر له ، وأن تضاعف حسناته إن كان من المحسنين ، وأن يستفيد من دعاء ابنه الصالح الذى سعى عليه وربَّاه واجتهد فى تعليمه وتهذيبه ؟

وتقول الآية / ٤٢ : « وأن إلى ربك المنتهَى » ، وهى من العبارات المشحونة

بمعانٍ كثيرة : فإلى الله منتهى علم كل شيء ، وإلى اللّه المصير ، والإنسان والمخلوقات جميعًا أينما اتجهت فثم وجه الله ومنتهاها إلى اللّه، وينبغى على البشر أن ينتهوا عند حدود الله لا يتعدَّوْنها ... وهكذا .

وفى الآية التى بعدها : « أنه هو أضحك وأبكى »، فهو خالق الضحك وخالق البكاء، وخالق الاستجابة عند الإنسان لهذا ولذاك، وخالق مسببات الضحك وبواعث البكاء .

وكذلك القول فى أنه « هو أمات وأحيا * وأنه هو رب الشِّعْرَى »، فهو مصدر الخلق والحياة والموت : منه المبتدأ ، وإليه المرجع ، وكل شيء مربوب له ، فليس هناك من إله غيره، وهو وحده الجدير بالعبادة والتقديس. وما الشِّعْرَى إلا مجرد نجم من خلقه سبحانه ، نجم لا يعقل ولا يشعر ولا يضر ولا ينفع .

ومما تذكره الآيات أنه سبحانه « هو أَغْنَى وأَقْنَى ». فأما الغِنَى فمعروف . لكن الخلاف فى « أَقْنَى »، فبعض المفسرين يشرحونها بأنه زادهم غنًى ، وبعضهم يقول إن معناها « أفقر »... إلخ . وأنا مع هذا الرأى الأخير. ذلك أن كل آية تقريبا من الثالثة والأربعين إلى السابعة والأربعين تذكر شيئين متضادين : الضحك والبكاء ، والإماته والإحياء ، والذكر والأنثى ، والنشأة الأولى والنشأة الأخرى. وما دام من معانى « أقنى » : « أفقر »، فلماذا نعدل بالآية عن المقابلة المتحققة فى الآيات السابقة عليها ؟ إن فى هذا كسرًا للتناظر بين الآيات وعدوانًا على التناغم الفكرى فيها .

ويذكّر سبحانه المشركين بما حدث لقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ، الذين أهلكهم تباعًا : منهم من أغرقهم، ومنهم من أرسل عليهم ريحًا صرصرا ، ومنهم من خسف بهم الأرض . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أَنْفُسَهم يظلمون .

وقد سمَّى الله « عادا » فى هذه السورة بـ « عاد الأولى » . وهى المرة الوحيدة التى وصفهم القرآن فيها بهذا الوصف. وكثير من المفسرين على أنهم عادان : عاد الأولى ، وعاد الثانية (٥٠). وبعضهم يقول إن ثمود هى عاد الثانية (٥١). ولكن ليس فى القرآن ما يدل على هذا . وأغلب الظن أنها عاد واحدة . أما الوصف بـ « الأولى » فمعناه « عاد التى هلكت فى قديم الزمن » . ومثل ذلك قوله تعالى : « أولم تأتهم (أى المشركين) بيّنة ما فى الصُّحُف الأولى ؟ » (٥٢)، وقوله : « ولا تبرَّجْن تبرُّج الجاهلية الأولى » (٥٣).

ومن غِنَى التركيب القرآنى أنك يمكن أن تقرأ الآيتين التاليتين : « وأنه أهلك عادا الأولى * وثمود فما أَبْقَى » على وجهين : إذ يمكن أن تجعل « ثمود » معطوفة على « عاد » ، وجملة « فما أبقى » معطوفة على جملة « أهلك عادا الأولى وثمود ». ويمكنك أيضا أن تجعل كل آية جملة بحالها ، والثانية معطوفة على الأولى ، بحيث يصبح المعنى هكذا : « وأنه أهلك عادا الأولى ، وكذلك لم يُبْقِ على ثمود » (٥٤).

وبعد أن تنتهى الآيات من تعداد الأمم التى أهلكها الجبار جلّ وعلا تُلْقِى هذا السؤال : « فبأى آلاء ربك تتمارى ؟ » (٥٥) . وليس السؤال موجها للرسول صلى الله عليه وسلم كما جاء فى أحد القولين فى تفسير أبى السعود (٥٦) . وكذلك لا أعتقد أن الخطاب فيه موجه إلى الإنسان بعامة . إنما السؤال لذلك الذى تولى وأعطى قليلا وأكْدَى والذى سأل القرآنُ بشأنه : « أولم يُنَبَّأْ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفّى * ألا تزرُ وازرة وزْرَ أخرى... ؟ » إلخ الآيات. كل ما فى الأمر أن الضمائر انتقلت من الغيبة إلى الخطاب. وذلك من التفاتات القرآن الكثيرة . فالعدول بالخطاب

عن هذا الشخص المحدَّد إلى شخص الرسول عليه السلام (ولم يسبق له ذكر فى الآيات المشار إليها) أو إلى الإنسان بعامة هو أمر لا مبرِّر له .

ويقول المولى بعد ذلك : « هذا نذير من النُّذُر الأولى » (٥٧) . واسم الإشارة هنا يمكن أن ينصرف إلى أكثر من مشار إليه، إذ يمكن أن يكون هو الرسول عليه السلام ، ويمكن أن يكون هو القرآن، ويمكن أن يكون هو الآيات التى تتحدث عن هلاك الأمم السابقة . ولا داعى لقصره على مشارٍ إليه واحد ، كما فعل مثلاً لودفيج أولمان ، الذى أضاف داخل قوسين فى الآية أنه « محمد » (٥٨)، وضيّق تلك السعة التى هى دليل غنى فى العبارة القرآنية .

ثم تتتابع المطارق : « أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة ». ومرة أخرى : ما الآزفة ؟ إنها يوم القيامة ، وإنها أيضا هزيمة الشرك والمشركين على يدى رسول رب العالمين وأتباعه من المؤمنين . ومرة أخرى نرى غِنَى التركيب القرآنى الذى يدل بكلمة واحدة على أكثر من معنى فى ذات الوقت (٥٩) . وفى جرس لفظتى « الآزفة » و « الكاشفة » ما يشبه عصف الريح وقصفها .

وتبكّت الآيات الثلاث الأخيرة المشركين قائلة لهم : علام عجبكم أن أنزلنا على رجل منكم هذا القرآن ؟ وكيف تواتيكم نفوسكم على الضحك والاستهزاء بدلاً من أن تبكوا وتنوحوا على المصير المرعب الذى ينتظركم ؟ استحوا واخجلوا وبادروا إلى الإيمان وطاعة الرحمن ، واعبدوه واسجدوا له ، ودعوكم من الأصنام والأوثان .

الهوامش

١- والثريا مع ذلك سبعة أنجم كما يقولون .

٢- انظر فى هذه الأقوال « البحر المحيط » / ٨ / ١٥٧ . وتجد بعضا منها فى ترجمة لودفيج أولمان (Ludwig Ullman) الألمانية للقرآن ، وذلك فى تعليقه على ترجمته للآية الأولى من السورة (انظر ترجمته المسمّاة « Der Koran - das Heilige Buch des Islam » / ط . Goldman / ميونيخ / ٤٢٧) .

٣- الحجر / ٧٢ .

٤- أى الألف واللام هنا هى ألف ولام الجنس .

٦- الواقعة / ٧٥ .

٧- الحجر / ١٠٨ .

٨- النمل / ٧ .

٩- الجن / ٩ .

١٠- الجن / ٨ .

١١- السيد عبدالله كنون / تفسير سور المفصل من القرآن الكريم / دار الثقافة / الدار البيضاء / ط ١ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / ٥٩ .

١٢- الآية / ٢ .

١٣- الآية / ٣ .

١٤- انظر تفسير القرطبى / ١٧ / ٨٤ - ٨٥ ، وابن الجوزى / زاد المسير فى علم التفسير / المكتب الإسلامى / بيروت ودمشق / ٨ / ٦٣ .

١٥- الآية / ٥ .

١٦- انظر مثلاً القرطبى / ١٧ / ٨٥ ، وأبا حيان / البحر المحيط / مكتبة مطابع النصر

الحديثة / الرياض / ٨ / ١٥٧ .

١٧- التكوير / ٢٠ .

١٨- التكوير / ٢٣ .

١٩- الآيتان / ٦ - ٧ .

٢٠- انظر مثلا تفسير الطبرى / مجلد ١٣ / ج ٢٧ / ٤٣ ، وتفسير القرطبى / ١٧ / ٨٥ - ٨٦ .

٢١- انظر ابن الجوزى / زاد المسير / ٨ / ٦٥ .

٢٢- تفسير التحرير والتنوير / ٢٧ / ٩٨ . ومن قبل قال محمد بن أبى بكر الرازى أيضا إنها للتخيير ، ونفى أن تكون للشك (مسائل الرازى وأجوبتها من غرائب آى التنزيل / تحقيق إبراهيم عطوة عوض / مصطفى البابى الحلبى / ط ١ / ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م / ٣٢٨) .

٢٣- من أضاليل المستشرقين ما قرأته فى ترجمة بلاشير للقرآن إلى الفرنسية تعليقًا على هذه الآيات من أن تلك السدرة كانت فى أطراف مكة ، وأن « جَنة المأوى » هى دارة (فيلا) كانت هناك . وإن الإنسان ليتساءل متهكما على هذا التفسير العجيب الذى أعتقد أنه مقصود لإلقاء البلبلة فى نفوس المؤمنين : لقد ذكر القرآن أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات لهم « جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون » (السجدة / ١٩) ، فهل نفهم من ذلك أنه قد أُعَدت لهم « فلل » فى أطراف مكة ليسكنوا فيها ، وأقيمت بجوارهما « فلل » أخرى أُشْعِلت فيها النيران وحُبس فيها الذين فسقوا فلا يستطيعون أن يخرجوا ؟ وقد ترجمها لودفيج أولمان هكذا : « عند السدرة التى لايمكن تجاوزها » (Der Koran , s. 428) .

٢٤- تفسير التحرير والتنوير / ٢٧ / ١٠٢ .

٢٥- انظر فى ذلك تفسير الطبرى / مجلد ١٣ / ج ٢٧ / ٥٨ . وهناك تفسيرات أخرى لهذه الأسماء لا تطمئن النفس إليها ، ولذلك ضَرَبْتُ عنها صفحا ، إذ إن ما يهمنى هو تفنيد القول الذى يزعم أنها مؤنثات أسماء الله .

٢٦- انظر « تفسير التحرير والتنوير » / ٢٧ / ١٠٣ .

٢٧- راجعها فى « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم »

٢٨- الآيتان / ٢١ - ٢٢ .

٢٩- الآية / ٢٣ .

٣٠- انظر « الكشاف » / ٤ / ٣١ . وانظر أيضا تفسير أبى السعود / مجلد ٤ / ج ٨ / ١٥٩ .

٣١- الآية / ٢٥ . وقد ترجمها لودفيج أولمان هكذا : « الله هو الآخر والأول » (Der Koran , s. 428)

٣٢- ليس هذا خاصا بالملائكة ، بل يشمل كل الشفعاء . قال تعالى : « مامن شفيع إلا من بعد إذنه » (يونس / ٣) ، « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً » (طه / ١٠٩) ، « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » (سبأ / ٢٣) .

٣٣- الآية / ٢٩ .

٣٤- ترجم عبد الله يوسف على هذه الكلمة هكذا : «shun» ، وهو ما يفيد الانصراف عنهم وإهمالهم كأنهم غير موجودين . انظر ترجمته المسمّاة «The Glorious Kuran» / ١٤٤٧ . كما فهم أبو الأعلى المودودى رحمه اللّه والسيد عبد الله كنون الإعراض هنا على أنه ترك دعوتهم لعدم إتيان خيرٍ منهم (انظر على التوالى The Meaning of the Quran , XIII , p. 255 ، وتفسير سور المفصل من القرآن الكريم / ٦٤) .

٣٥- النساء / ٦٣ .

٣٦- الحجر / ٩٤ .

٣٧- الطبرسى / مجلد ٦ / ج ٢٧ / ٥١ .

٣٨- تفسير التحرير والتنوير / ٢٧ / ١١٧ .

٣٩- انظر تفسير القرطبى / ١٧ / ١٠٥ .

٤٠- انظر « البحر المحيط » / ٨ / ١٦٣ - ١٦٤ .

٤١- انظر تفسيره « الدرّ اللقيط من البحر المحيط » (على هامش « البحر المحيط » / ٨ / ١٦٣) .

٤٢- ذكر ابن الجوزى أن الآية منسوخة بآية السيف عند المفسرين (زاد المسير / ٨ / ٧٥). لكن هذا إطلاق فى غير محله ، فبعض المفسّرين ، كما رأينا ، لا يقولون به .

٤٣- انظر فى ذلك تفسير الطبرى / مجلد / ١٣ / ج ٢٧ / ٦٤- ٦٩ ، وتفسير القرطبى / ١٧ / ١٠٦ - ١٠٩ ، والكشاف / ٤ / ٣٢ - ٣٣ ، وفى ظلال القرآن / ٦ / ٣٤١٢ - ٣٤١٣ .

٤٤- الآيتان / ٣٣ - ٣٤ .

٤٥- الطور / ٢ .

٤٦- « تزر » فعل مضارع مرفوع ، إذ ليست « أن » التى قبله ناصبة بل مخففة من الثقيلة ، أى : « أو لم ينبَّأ .... * .... * أنـ (ـه) لا تزر وازرة وزر أخرى ؟ ».

٤٧- انظر تفسير الطبرى / ١٣ / ٢٧ / ٧٤ ، وابن الجوزى / زاد المسير / ٨ / ٨١ .

٤٨- وفى ضوء هذا يمكن فهم ما جاء فى الأثر من أنَّ « ولد الرجل من كسبه » . رواه أبو داود .

٤٩- الكشّاف / ٤ / ٤٧ (عند تفسير الآية / ٢٩ من سورة « الرحمن »).

٥٠- انظر تفسير الطبرى / مجلد ١١٣ / ج ٢٧ / ٧٨ ، وتفسير القرطبى / ١٧ / ١٢٠ .

٥١- من هؤلاء المبرّد (انظر البحر المحيط » / ٨ / ١٦٩) ، وعبد الله يوسف على (The Glorious Kur'an , p. 358 , n. 1040) .

٥٢- طه / ١٣٣ .

٥٣- الأحزاب / ٣٣ .

٥٤- يُعْتَرض على المعنى الأخير بأن « ما » لا يعمل ما بعدها فيما قبلها (انظر الطبرسى / مجلد ٦ / ج ٢٧ / ٦٠) . ولست أرى مبررا لهذا الاعتراض لا من العقل ولا من

ذوق اللغة . إنهم يقولون إن السبب فى ذلك أن « ما » تشبه الاستفهام فى أن لها صدارة الكلام . غير أنه قد فاتهم أننا نقول مثلاً : « محمد ما جاء » ، فنضعها بعد « محمد » (وهو مبتدأ) ، ولو كان لها صدر الكلام ما قُبِل هذا التركيب .

٥٥- الآية / ٥٥ .

٥٦- مجلد ٤ / ج ٨ / ١٦٥ .

٥٧- الآية / ٥٦ .

٥٨- Der Koran , s. 429 . وبالمثل فسَّر سيد قطب ، رحمه الله ، بأنه الرسول صلى الله عليه وسلم (فى ظلال القرآن / ٦ / ٣٤١٨) .

٥٩- يترجم الصادق مازيغ « الآزفة » بـ «L'heur du Jugement : ساعة الحساب » (Le Coran , traduit par Sadok Mazigh , Maison Tunisienne de l' edition , p. 1005) .

قصة الغرانيق

جاء فى بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسًا مع جماعة من قريش كثيرة العدد فتمنى ألاَّ ينزل عليه شيء وهو بين أظهرهم حتى لا ينفروا عنه. لكن الوحى قد نزل ساعتئذ بسورة « النجم » فقرأها رسول الله عليهم، حتى إذا وصل إلى قوله تعالى : « أفرأيتم اللاتَ والعُزَّى * ومناةَ الثالثة الأخرى ؟ » ألقى الشيطان على لسانه (وفى رواية أخرى أنه ألقى فى مسامعهم) كلمتين فيهما مدح لآلهتهم ، وهما : « تلك الغرانيق العلا * منها الشفاعة تُرتَجى ». ولما فرغ صلى الله عليه وسلم من تلاوة السورة (وفى نهايتها : « فاسجدوا لله واعبدوا ») خرّ ساجدا هو والمسلمون ، وسجد معهم أيضا المشركون حين سمعوا آلهتهم تُذْكَر بخير. وفى المساء أتاه جبريل فعرض الرسول عليه السورة، فلما قرأ هاتين الكلمتين الشيطانيتين نبهه جبريل عليه السلام إلى أنه لم يَنْزِلْ عليه بهما ، ونزل قوله تعالى من سورة « الإسراء » (١) : « وإن كادوا لَيفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره . وإذن لاتخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلاً * إذن لأذقناك ضِعْف الحياة وضِعْف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا » ، فحزن الرسول حزنا شديدا حتى نزل الوحى يسلّيه عن همه بقوله تعالى من سورة « الحج » (٢) : « وما أرسلنا مِنْ قَبْلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم. وإن الظالمين لفى شقاق بعيد * وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتُخْبِتَ له قلوبهم . وإن الله لهادى الذين

آمنوا إلى صراط مستقيم » (٣) .

وينبغى التنبيه إلى أن هذه القصة هى المحور الأساسى فى رواية سلمان رشدى المسماة «الآيات الشيطانية». وهذه التسمية ، فيما هو واضح ، راجعة إلى أن قصة الغرانيق تنسب الكلمتين المذكورتين إلى الشيطان ، فأطلق رشدى عليهما « آيات » ودعاها « آيات شيطانية » (٤). وما من مستشرق قرأت له دراسة لسيرة الرسول وشخصيته أو للقرآن الذى نزل عليه صلى الله عليه وسلم إلا ويقف عادة عند هذه القصة ويطيل الوقوف وكأنه عثر على سلاح يمكنه أن يصيب به الدعوة الإسلامية وصاحبها عليه أفضل السلام فى مقتل . وهو ما يدل على خطورة هذه القصة وأهمية دراستها وتحليلها وتحقيقها للوصول إلى حكم بشأنها .

وأول ما ينبغى أن يقال هنا أن هذه القصة لم ترد فى أى من كتب الصحاح البتة. كما رأى عدد من علماء الحديث أنها من ناحية السند غير مقبولة، ولاحظوا أن هذا السند لا يصل إلى النبى صلى الله عليه وسلم. وكذلك رفضها عدد من المفسرين والعلماء القدماء كابن حزم وابن العربى والقاضى عياض وابن كثير والبيضاوى والرازى وابن الأنبارى والقشيرى. أما فى العصر الحديث فلا أعلم أحدًا من الذين تناولوا هذه الآيات أو تحدث عن القصة إلا رفضها رفضًا قاطعًا . فعل ذلك الألوسى، ومحمد عبده، وسيد أمير على، والقاسمى ، ود. محمد حسين هيكل، وأبو الأعلى المودودى، وأحمد مصطفى المراغى، ومحمد حميد الله، وسيد قطب، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وغيرهم .

ونبدأ بمحمد عبده ، رحمه الله ، الذى يقول إن القسطلانى فى شرحه للبخارى قد ذكر أن عددا من الأئمة قد طعن فى هذه القصة وسندها ، بل إن ابن اسحاق

المتساهل فى قبول الروايات والذى لا يحظى بمكانة عالية عند أهل الحديث قد قال إنها من وضع الزنادقة. كما أورد الأستاذ الإمام كلام ابن العربى والقاضى عياض فى رفض القصة وإنكار الحديث الذى وردت فيه ، وقول الأخير إن مما يدل على استحالة القصة أن السورة ، على هذا النحو ، تجمع بين مدح الأصنام الثلاثة وذمّها . فكيف فات هذا على النبى عليه السلام ومن بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ؟ وكذلك قوله إن هذا لو حدث لشنّع به الكافرون واليهود والمنافقون وضعفة الإيمان من المسلمين. فكيف لم ترد ولو رواية واحدة بذلك؟ وقوله إن ما جاء فى القصة من أن الله سبحانه قد أنزل عليه بعد ذلك قوله تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره . وإذن لاتخذوك خليلاً * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » ينقضها من أصولها ، إذ إن هاتين الآيتين تقولان بصريح العبارة إنهم لم يفتنوه وإنما « كادوا » ، وإنه لم يركن إليهم شيئًا قليلا ولا كثيرا . وهو ما جاء فى موضع آخر من القرآن ، إذ قال سبحانه : « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك . وما يضلون إلا أنفسهم ، ومايضرونك من شىء » (٥) .

ثم يمضى الإمام محمد عبده مفسّرا آيات سورة « الحج » ومبينا ما جاء فيها من أن الذى وقع للنبى إنما وقع لكل الرسل والنبيين من قبله ، فلو كان ما تقوله قصة الغرانيق صحيحا لكان معنى ذلك أن كل رسول ونبى قد ألقى الشيطان فى الوحى الذى نزل عليه كلامًا لا يمت إلى ذلك الوحى بصلة بل ينقضه نقضا . وهذا ما لا يقول به أحد . ويضيف موضحًا ما كرره القرآن فى مواضع متعددة منه من أن سنة الله فى المرسلين أن يكذبهم أقوامهم ويتناولوا ما أتوهم به بالتحريف ويضعوا العثرات فى طريقهم. وعلى هذا فتفسير الآيات فى نظره أن الرسول صلى الله عليه وسلم، شأنه شأن سائر

إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، كان يتمنى هداية قومه ويحرص أشد الحرص على ذلك حتى إن الأسف على عصيانهم وجحودهم كان يوشك أن يقضى عليه كما جاء فى أكثر من موضع من القرآن المجيد . لكن الشيطان كان يلقى فى سبيله العقبات ويوسوس فى صدور أعدائه ، وكان ذلك كله فتنة لهم . وحتى لو كانت « الأمنية » الواردة فى الآيات معناها « القراءة » ، فإن إلقاء الشيطان فى أمنية الرسول معناه أن أعداءه كانوا يدّعون عليه ما لم يقله أو يؤولون كلامه إلى ما لم يقصده ليبعدوا الناس عنه ويفتنوهم عن اتباع الحق الذى جاء به ، لكن أهل العلم بما رُزِقوه من قوة التمييز بين البرهان القاطع والسفسطات الطائشة قادرون بعون الله على إبطال ذلك وإرجاع الأمور إلى نصابها .

وممَّا يستدل به الشيخ محمد عبده على أنَّ القصة مخترعة أنه لم يرد عن العرب فى شعر ولا خُطَب وصف آلهتهم بأنها « الغرانيق العلا » ، بل لم يُنْقَل عن أحد أن ذلك كان جاريا على ألسنتهم ، اللهم إلا ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » ، الذى أورده بغير سندٍ . ويقول محمد عبده إن « الغرنوق » و « الغرنيق » هو اسم طائر مائى أو طائر الكركى أو ما يشبهه ، أو الشاب الأبيض الجميل ، أو الخصلة المفتّلة من الشعر ، أو نوع من الشجر . ولا شىء من هذا فى نظره يلائم الآلهة والأصنام (٦) .

ويقول سيد أمير على إن الذى قال تينك الكلمتين فى مدح الأصنام الثلاثة إنما هو أحد المشركين (وقد جعلته الروايات القديمة الشيطان) ، وإن الذى دعاه إلى ذلك هو حرصه على تجنب ما أحس أن الآيات القرآنية التالية لقوله تعالى : « أفرأيتم اللاتَ والعُزّى * ومناة الثالثة الأخرى ؟ » ستنطق به زراية على هذه الأصنام وعُبّادها ، فأراد أن يقطع الطريق عليها ويسبقها إلى مدحها (٧) .

أما محمد جمال الدين القاسمى فينقل فى تفسيره المسمَّى « محاسن التأويل »

ما قاله الإمام محمد عبده ، ويضيف إليه أشياء منها قول القاضى أبى بكر البزّار إنه لو سلّمنا بالقصة فالظاهر أن المراد بالغرانيق هم الملائكة ، ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح ، ولكن لما تأوّله المشركون على أن المراد بها آلهتهم ولبّس عليهم الشيطان ذلك نسخ الله هاتين الكلمتين (٨) . ولكن يرد على هذا بأن الكلام السابق عليهما مباشرة هو فى الأصنام الثلاثة، وليس للملائكة ذكر فى السورة قبل ذلك . إنما ورد ذكرهم بعده بعدة آيات. وممّا أورده القاسمى أيضا فى هذا الموضوع ما نقله عن الرازى من أن محمد بن إسحاق بن خزيمة قد صنف كتابًا فى قصة الغرانيق وقرّر فيه أنها من وضع الزنادقة (٩). وهى تفصيلة توضح بعض الشىء ما جاء عند محمد عبده مجملاً ، إذ ذُكر اسم ابن إسحاق هنا كاملاً ، كما ذُكر أنه قد ألف فى ذلك كتابًا ردًا على سؤال وُجّه إليه فى هذا الموضوع.

وفى « حياة محمد » يشير الدكتور هيكل إلى ما قاله ابن إسحاق (بن خزيمة) من أن هذه الرواية من وضع الزنادقة ، ويردّ الكلمتين المشار إليهما على أساس أن الآيات التى تتلوهما تجرى هكذا : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى * إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس. ولقد جاءهم من ربهم الهدى » ، وأنه لا يمكن أن يتعاقب مدح وذم على هذا النحو. كما استند أيضًا إلى أنه ليس من بين معانى كلمة « الغرانيق » ما يجعل العرب يطلقونها على آلهتهم (١٠) .

ويغلب على الظن أن د. هيكل قد اعتمد اعتمادًا كبيرا على ما كتبه ونقله عن غيره من العلماء الشيخ محمد عبده، فالحجج هى الحجج . لكن بينما ورد عند الأستاذ الإمام أن « السورة » حسب رواية الغرانيق تجمع بين مدح الأصنام الثلاثة

وذمّها فى تناقض غير معقول ، نجد أن د . هيكل يجعل هذا التناقض منحصرا بين تينك الكلمتين والآيات الثلاث التالية لهما مما يمكن معه للمشغوفين بالمراء وإثارة الفتن من أعداء الإسلام أن يقولوا مثلاً إن هذه الآيات الثلاث إنما جاءت فى موضع الآيتين المذكورتين فنسختهما ، ولم تكن موجودة منذ البداية (١١) . والواقع أن مضمون السورة كلها ، والجو النفسى الذى يخيم عليها من مفتتحها إلى مختتمها والذى هو جو عداء مستحكم بين الرسول وقومه ، والرد العنيف الذى ساقته السورة الكريمة فى تكذيب اتهامات قريش له صلى الله عليه وسلم بأنه إنما ينطق عن الهوى وأنه فى غواية وضلالٍ مبين ، والتسفيه الشديد لمعتقدات المشركين فى الأصنام والمسؤولية الجزائية ، كل ذلك يجعلنا نقول إن السورة كلها من أول آية فيها إلى آخر آية ترفض هاتين الآيتين بعنف كما يرفض الجسم عضوا غريبا عنه لا يمكنه التفاعل معه ، ومن ثم فمن المستحيل أن ترد فى هذا السياق الفكرى والنفسى أية آيات تمجد آلهة قريش .

ويورد مولانا أبو الأعلى المودودى ، طيب الله ثراه ، عددًا من الأدلّة السابقة ، علاوة على قوله إن الكلمات المنسوبة للشيطان قد وردت بعدة صور مختلفة فى روايات تختلف هى أيضا فى تفاصيلها ، مما يجعلها فى نظره محل شكّ (١٢) . وهو عندى ليس بالدليل المقنع ، فكثير من الحوادث التاريخية الصحيحة قد ورد بروايات مختلفة . وهناك دليل آخر أوْرده ، وهو قوله إن قصة الغرانيق قد وقعت فى السنة الخامسة للهجرة (إذ هذا هو تاريخ نزول سورة « النجم ») ، بينما نزلت آيات العتاب التى جاءت فى سورة « الإسراء » والتى ترتب عليها نسخ الكلمتين اللتين تمدحان أصنام قريش بعد ذلك بست سنوات ووُضِعت فى مكانها من تلك السورة . فما الذى جعل السماء تنتظر كل هذه المدة قبل أن تعاتبه عليه السلام ؟ وما الذى جعل آيات سورة « الحج » ، التى

يقولون إنها قد نزلت فى التخفيف عنه صلى الله عليه وسلم، تنتظر سنتين أخريين بعد هذه السنوات الست ؟ (١٣)

وتفسيره للأمر هو أن من الممكن أن يكون الكفار ، بعد أن عاتبهم من عاتبوهم على سجودهم مع المسلمين ، ذلك السجود الذى غُلِبوا عليه انبهارًا وخشوعًا أمام آياته القارعة، قد زعموا كاذبين بغية تسويغ فعلهم هذا أنهم قد سمعوا محمدا يثنى على آلهتهم (١٤) .

ويرى محمد حميد الله أننا لو افترضنا صحة قصة الغرانيق وأن النبى قد قال تينك الكلمتين فعلا فإنه يكون قد نطقهما بنبرة استفهامية (هكذا : « إنهن الغرانيق العلا ؟ * وإن شفاعتهن لترتجى ؟ » يقصد أن المعنى هو مثلا : من قال إنهن الغرانيق العلا * وإنهن شفاعتهن لترتجى ؟). ويوضح ذلك بقوله إن اللغة العربية فى الجُمَل الاستفهامية لا تستخدم دائمًا أداة الاستفهام . ولكى يقضى القرآن على أى لبس كان عليه أن يحذف هاتين الكلمتين ويضع مكانهما الآيتين التاليتين : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ * تلك إذن قسمة ضيزى » (١٥) .

ويشير ابن عاشور هو أيضا إلى الفارق الزمنى الكبير الذى يفصل بين نزول الآيتين المزعومتين فى سورة « النجم » وبين آيات سورة « الحج » التى تطيّب نفس النبى صلى الله عليه وسلم مما رأيناه عند المودودى . وكذلك ينقل عن الطيبى عن بعض المؤرخين أن ابن الزِّبَعْرَى هو ملفق هاتين الكلمتين (١٦). ويزيد ابن عاشور على ذلك أن تفسير « التمنى (الوارد فى آيات « الحجّ ») بالقراءة لا يوجد له شاهد يدعمه إلا قول حسان بن ثابت فى عثمان ، رضى الله عنهما :

تمنّى كتاب الله أول ليله وآخره لاقى حمام المقادر

الذى يحتمل مع ذلك أن يكون معناه : « تمنَّى أن يقرأ (عثمان) القرآن فى أول الليل على عادته فلم يتمكن من ذلك بتشغيب أهل الحصار عليه ، وقتلوه آخر الليل. ولهذا جعله تمنيا لأنه أحب ذلك فلم يستطع » . ويستدل ابن عاشور على ذلك بأن الزمخشرى لم يذكر لـ « التمنى » هذا المعنى فى « أساس البلاغة » (١٧) .

ويمكننا أن نزيد على ماسبق أن الآيتين المزعومتين تجعلان الأصنام الثلاثة مناطًا للشفاعة عند الله ، وهو ما لم يسنده القرآن على هذا النحو لأى كائن آخر. ولن نذهب بعيدا ، فثمة آية فى سورة « النجم » لا يفصلها عن هاتين الآيتين المزعومتين إلا خمس آيات جدّ قصار، نصها كالآتى : « وكم من ملَك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ». فكيف يقال هذا عن الملائكة وفى نفس الوقت تؤكد الآيتان المزعومتان أن شفاعة تلك الأصنام جديرة بالرجاء والرضا الإلهى من غير تعليق لها على إذن الله ؟

وقد ذكر ابن السائب الكلبى أن قريشا كانت تطوف بالكعبة وتقول : « واللات والعزّى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لتُرْتَجى » ، وأنهم كانوا يقولون إنهن « بنات الله ، وهنَّ يشفعن إليه » ، فلما بعث الله رسوله عليه السلام أنزل عليه تفنيدا لهذا الاعتقاد الوثنى : « أفرأيتم اللات والعُزّى * ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ * تلك إذن قسمة ضيزى * إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » (١٨). والحق أن هذا أشبه بأن يكون هو الصَّواب . ويبدو أن أحد المشركين، عندما سمع النبى يذكر آلهتهم هذه بما يتوقَّع من سياق الآيات أنه تحقير لها وتسفيه لعبّادها ، سارع فذكر ما كانوا يقولونه فى

تمجيدها قبل أن يقرأ النبى الآيات التى فيها التحقير والتسفيه . أو لعلَّ أحد الزنادقة قد أخذ رواية ابن الكلبى هذه وحرَّفها ، واضعًا كلام قريش فى أصنامها على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم.

لقد اتخذ المستشرقون من هذه القصة سلاحًا يحاربون به الإسلام زاعمين أن الرسول (وهو، كما يقولون ، مؤلف القرآن) قد تراجع عن مبدإ التوحيد وأراد أن يتملق المشركين بمدح آلهتهم فتلا الآيتين المذكورتين ضمن السورة ، ولكنه قدّر العواقب فتراجع وحذفهما . وللرد على ذلك نقول إنّ الآيتين المزعومتين لا تمتان إلى الأسلوب القرآنى بأية وشيجة من الوشائج : لقد بدأت مجموعة الآيات التى تتحدث عن هذه الأصنام بقوله عز من قائل : « أفرأيتم ... ؟ ». وهذا التعبير قد تكرر (بالفاء وبدونها) فى القرآن إحدى وعشرين مرة كلها فى مخاطبة الكفار ، وكلها فى مواقف خصومة أو تهكم أو تقريع أو تهديد أو ما إلى ذلك بسبيل. فكيف يقال إن هذا التعبير قد ورد فى سورتنا بالذات فى سياق التطلف للكفار ومراضاتهم بمدح آلهتهم ؟ ثم إنه قد ورد فى الآية الثانية من آيتى الغرانيق كلمة « تُرْتَجَى ». وهذا غريب ، فإن القرآن يخلو تمامًا من صيغة « افتعل » من مادة « رجا ». وبالنسبة للفعل « تُرْتَضَى »، الذى ورد فى بعض الروايات بدلاً من « تُرْتَجَى » (هكذا : « وإن شفاعتهن لتُرْتَضَى »)، فالملاحظ أنه لم يقترن بالشفاعة فى أى موضع من المواضع التى ورد فيها فى القرآن. ونفس الكلام ينطبق على مادة « الرجاء » كلّها . إنما الذى يقترن بالشفاعة الفعلان « تنفع » أو « تغنى » باعتبار الشفاعة فاعلاً لهما (وهذا هو الغالب)، أو الفعل « يملك » واقعا عليها . فكما ترى فالتحليل الأسلوبى يؤكد أن هاتين الآيتين لا يمكن أن تكونا من القرآن .

وفوق ذلك فالرسول لم يكن من شيمته التردد يوما حتى يقال إنه قد تذبذبت قدماه ولو لبعض الوقت وتراجع عن أهم مبدإٍ فى دعوته ، وهو مبدأ التوحيد . ولقد ترجاه عمه أبوطالب أن يخفف من موقفه تجاه الأصنام وعبّادها فرفض رفضا قاطعًا وصاح قائلاً : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يُظْهره الله أو أهلك فيه ما تركتُه ». ولقد أتاه عتبة بن ربيعة مُوفَدا من زعماء قريش يعرض عليه المال والرئاسة فرفض أن يجيبه مكتفيا بقراءة صدر سورة « السجدة » بآياته التى زلزلت قلب عتبه حتى لقد رجع إلى أصحابه بوجه غير الذى انصرف به عنهم (١٩). ولقد كان رأيه عليه السلام فى غزوة أحد أن يتحصن المسلمون فى المدينة، وعندما أبدى الشباب حماسة شديدة لملاقاة المشركين خارج مدينتهم نزل على رأيهم ولبس لأْمته . ولكنهم عادوا فندموا على مخالفته رأيه وعرضوا عليه أن يبقوا داخل المدينة كما اقترح أوّلاً ، فما كان منه إلا أن قال قولته المشهورة : « ما ينبغى لنبى إذا لبس لأْمته أن يضعها حتى يقاتل » (٢٠). وحينما عرضت عليه ثقيف ، عند دخولها الإسلام ، أن يبقى لها وثنها ولو شهرا ثم فليصنع به بعد ذلك ما يشاء لم يوافق على ذلك قط (٢١) ، مع أن المسألة مسألة أسابيع تعدّ على أصابع اليد الواحدة . فكيف يقال إنه قد مالأ الوثنيين وهو لا يزال فى أول الطريق حيث تكون حماسة الإنسان على أشدها ؟ وهل يعقل أن يكون الرسول عليه السلام أقل إخلاصًا لمبادئه من تلامذته الذين كانوا فى الحبشة آنذاك وحاولت قريش أن توغر صدر النجاشى عليهم بأن أخبرته أن المسلمين يقولون فى عيسى غير ما يقول ، فأحضرهم وسألهم فلم يخفوا عنه شيئا من عقيدة الإسلام فى المسيح عليه السلام وقرأوا عليه آيات سورة « مريم » التى تقرر بأجلى بيان أنه ليس إلا عبدًا لله ونبيًّا ؟ أيكون هؤلاء التلاميذ ،

وهم فى غربتهم ، أصلب وأوفى للإسلام من أستاذهم الذى جاءهم بهذا الإسلام وهو بين عشيرته المستعدة للاشتباك مع الدنيا كلها من أجله : من آمن منهم به ومن صدَّ عنه ؟ (٢٢)

لكل ما تقدم من أدلة قلناها أو قالها من سبقونا من العلماء قديمًا وحديثًا نرفض قصة الغرانيق وقول المشككين من أعداء الإسلام إن تينك الآيتين المشار إليهما كانتا تشكلان جزءًا من القرآن قبل أن يحذفهما الرسول عليه السلام . وإن الرواية التى أوردها فى ذلك الصدد الطبرى وردّدها وراءه من رددها لتدلُّ على مدى الطيبة التى كان بعض علمائنا القدامى يتناولون بها مسائل الدين ممَّا أتاح الفرصة لشياطين المستشرقين والمبشرين للطنطنة بها والإجلاب على جماهير المؤمنين بغية زحزحتهم عن دينهم وزعزعة يقينهم فى نبيهم سيد الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليه .

الهوامش

١- الآيات / ٧٣ - ٧٥ .

٢- الآيات / ٥٢ - ٥٤ .

٣- انظر فى هذا على سبيل المثال تفسير الطبرى / دار الفكر / بيروت / ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م، مجلد ١٠ / ح ١٧ / ١٨٦ وما بعدها ، وابن العربى / أحكام القرآن / عيسى البابى الحلبى / ١٩٥٨ م / ٣ / ١٢٩١ . وقد عرض هذه المسألة بالتفصيل سيد قطب فى « الظلال » / ٤ / ٢٤٣٢ .

٤- درست رواية سلمان رشدى فى كتاب لى ظهر منذ عدة سنوات بعنوان « ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية » (المطبعة النموذجية / القاهرة / ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م). وقد تناولت هذه النقطة فى مقدمة الدراسة المذكورة (ص / ٧- ١٠) .

٥- النساء / ١١٣ .

٦- راجع الفصلين اللذين عنوانهما : « مسألة الغرانيق » و « تفسير الآيات » من كتاب محمد عبده « دروس من القرآن » / دار إحياء العلوم / بيروت / ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م / ١٢١ - ١٤١ . على أنه قد ورد فى كتاب « الأصنام » لابن الكبى ، وهو سابق على ياقوت بقرون ، أن العرب كانت تطوف بالكعبة وتقول : « واللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرانيق العلا * وإن شفاعتهن لتُرْتَجَى » (الأصنام / تحقيق أحمد زكى / الدار القومية للطباعة والنشر / ١٩٦٥ م / ١٩) . وسوف أعود إلى كلام ابن الكلبى بعد قليل . أما محمد حميد الله فيقول إن هذه الطيور فى أثناء هجرتها من إسكندنافية إلى مدغشقر تمر بالحجاز . ولابد أن البدوى العربى قد اعتقد أن هذه الطيور الغامضة التى تطير على ارتفاع شاهق هى كائنات سماوية (انظر ترجمته للقرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية بعنوان « Le Saint Quran » / بيروت / p. 701). وهو رأى قائم على الافتراض لا سند له ، كما هو بيّن .

7- Ameer Ali , The Spirit of Islam ,Chatto & Windus , London , 1978 , p. 34.

وفى « تفسير التحرير والتنوير » للشيخ الطاهر بن عاشور (١٦ / ٣٠٦) أن الطيبى فى شرحه على « الكشاف » ، قد نقل عن بعض المؤرخين أن هاتين الكلمتين من مفتريات ابن الزبعرى . ويعلق ابن عاشور على ذلك بقوله : « ولعل ابن الزبعرى كانت له مقدرة على محاكاة الأصوات » ، يقصد محاكاة صوت الرسول الأكرم ، صلى الله عليه وسلم .

٨- انظر كتابه « محاسن التأويل » / دار الفكر/ بيروت/ ط ٢ / ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م / ١٢ / ٤١ .

٩- نفس المرجع والجزء والصفحة .

١٠- انظر د . محمد حسين هيكل / حياة محمد / دار القلم / القاهرة / ط ٣ / ١٦٠- ١٦٢ .

١١- وقد ذكر فعلا ألفرد جيوم ، المستشرق البريطانى ، شيئًا من هذا (Alferd Guillaume Islam , Pelican Books , 1964 , p. 26) ، وكذلك أبلتون (E.R. Applton , An Outline of Religion for Children , Hodder & Stoughton , London , p. 522) .

12- S.A.A. Maududi , The Meaning of the Qur'an , Islamic Publications Lt., Lahore , Vol. VII , 2nd. ed., 1978 , p. 216 .

١٣- المرجع السابق / ٧ / ٢١٨ .

١٤- السابق / ٧/ ٢١٩ . وهو نفس ما قاله الشيخ محمد الغزالى (فقه السيرة / دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد / ط ٣ / ١٩٦٠ م / ١١٧-١١٨) . ولكن الشيخ ناصر الدين الألبانى (فى الهامش) قد ردَّ على الجزء الخاص بادعاء المشركين أن الرسول قد عطف على آلهتهم بكلمة تقدير بأنه كلام ينقصه الدليل النقلى .

15- Le Coran , p. 701 .

١٦- انظر « تفسير التحرير والتنوير » / ١٦ / ٣٠٦ .

١٧- نفس المرجع والجزء والصفحة .

١٨- ابن الكلبى / الأصنام / ١٩ .

١٩- سيرة ابن هشام / تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد / مكتبة الكليات الأزهرية / القاهرة / ١ / ٢٦١ - ٢٦٢ .

٢٠- المرجع السابق / ٣ / ١٦- ١٧ .

٢١- المرجع السابق / ٤ / ١٣٧ .

٢٢- إلا عمه أبا لهب بطبيعة الحال ، فقد كان واقعا تحت سلطان زوجته أم جميل أخت أبى سفيان أحد زعماء الوثنية آنذاك .

مراعاة الفاصلة فى القرآن الكريم

معروف أن القرآن الكريم يقوم فى معظم آياته على الفواصل . والفاصلة قد تضطرُّ الكتَّاب الذين يراعونها إلى التقديم والتأخير فى تركيب الجملة ، أو إفراد ماحقُّه التثنية أو الجمع مثلا ، أو تذكير المؤنث أو العكس ، أو كسر قواعد اللغة ... إلخ ، وهو ما يسمونه « مراعاة الفاصلة » . وبعض العلماء يقولون هذا الكلام عن القرآن أيضا ، فيزعمون أحيانا أن المفروض أو الأحسن أن يكون الكلام فى الآية الفلانية على الشكل الفلانى ، لكن جاء الكلام فيها على النحو الذى جاء به رعاية للفاصلة . فكأنهم يريدون أن يقولوا إن ضرورة السجعة قد اضطرت الأسلوب القرآنى إلى هذا أو ذاك من أوضاع الكلام مما يخالف المعنى الدقيق الذى يريد القرآن التعبير عنه أو يخرج على القواعد اللغوية . قال ابن الصائغ الحنفى فى كتابه « إحكام الراى فى أحكام الآى » : « اعلم أن المناسبة أمر مطلوب فى اللغة العربية يُرتَكَب لها أمور من مخالفة الأصول ... وقد تتبعت الأحكام التى وقعت فى آخر الآية مراعاة للمناسبة فعثرت على نيّف عن الأربعين » (١) .

وقد رأينا بعضهم يقف عند عدد من الآيات فى سورة « النجم » قائلين إن الأصل أن يكون الكلام فيها على الوضع الفلانى ، لكن رعاية الفاصلة اقتضت مجيئه بخلاف ذلك . وهو ما يوحى من طرف خفى بأنهم يرون فى الأسلوب القرآنى بعض الأشياء ، فهم يحاولون توجيهها وإجراءها على الوضع الصحيح أو الوجه الأفضل على أضعف التقديرات .

فمن ذلك نظرهم إلى قوله تعالى عن رسوله محمد عليه السلام : « لقد رأى من

آيات ربه الكبرى » على أن المقصود : « لقد رأى الكبرى من آيات ربه » ، لكن الفاصلة هى التى أدت إلى هذا التقديم والتأخير » (٢) .

والواقع أنه ليس هناك دليل على أن هذا هو المراد ، وبخاصة أن الآية على وضعها الذى وردت به لا تحتاج إلى شىء من هذا . والأفضل عندى أن نأخذها على ما هى عليه ونقول إنه عليه السلام قد رأى عند سدرة المنتهى بعضا من آيات ربه الكبرى . أما على توجيههم فإن المعنى هو أنه صلى الله عليه وسلم قد رأى كبرى آيات ربه ، وهو ما يفيد أن آيات الله فيها الصغير وفيها الكبير ، مع أنها كلها كبرى . وهذا ما تعنيه الآية على وضعها الذى وردت فيه ، فـ « الكبرى » هى صفة لكل آيات اللّه ، وليست صفة لفئة منها فقط .

ولا يقولنَّ قائل إن فى دخول « مِنْ » التبعيضية على المفعول به فى جملة مثبتة (وهو « آيات ربه ») غرابةً . ذلك أن لهذا التركيب نظائر فى القرآن الكريم ، ومنها : « وارزق أهله من الثمرات » (٣)، « وبثَّ فيها من كلّ دابة » (٤) ، « واسألوا الله من فضله » (٥)، « ومن يَعْمَلْ من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة » (٦) ، « كلوا من ثمره » (٧) ، « كلوا مما رزقكم الله » (٨) ، « وكتبنا له فى الألواح من كل شىء » (٩) ، « كلوا من طيبات ما رزقناكم » (١٠)، « ربِّ ، قد آتيتنى من الملك وعلّمتنى من تأويل الأحاديث » (١١)، « ربّ ، إنى أسكنتُ من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع » (١٢)، « وينزّل من السماء من جبال فيها من بَرَد » (١٣) ، « ورزقكم من الطيبات » (١٤) ، « ولنذيقنّهم من عذابٍ غليظ » (١٥) ، « فشاربون عليه من الحميم » (١٦) . بل لقد ورد هذا الفعل والمفعول أعينهما فى الآية الأولى من سورة « الإسراء »، حيث يقول عز شأنه :

« لنريه من آياتنا » .

على أن هذا ليس كل ما قيل فى هذه الفاصلة ، بل هناك من رأى أن الأصل أن يقال : « لقد رأى من آيات ربّه الكُبَر » (بصيغة الجمع) لولا مراعاة الفاصلة ، التى اقتضت وصف « الآيات » (وهى جمع) بـ « الكبرى » (وهى مفرد) . وهذا ما يفهم من كلام القرطبى إذ يقول : « وهى (أى الكبرى) صفة « الآيات »، ووحّدت (أى جاءت بصيغة المفرد بدلاً من صيغة الجمع) لرؤوس الآيات (أى مراعاة للفاصلة) » (١٧) .

وقد كان هذا يصح لو أن القرآن فى غير رؤوس الآى يصف دائما الجماعة (جماعة غير العقلاء) بوصف الجمع . لكن هذا غير صحيح ، إذ جاء فى درج الآيات مثل هذه الأوصاف مجموعة أحيانا ومفردة أحيانا أخرى . ومن الشواهد على هذه الأخيرة ، وهى التى تهمنا هنا : « أضعافا كثيرة » (١٨) ، « مغانم كثيرة » (١٩)، « آلهة أخرى » (٢٠)، « الأسماء الحسنى » (٢١)، « مواطن كثيرة » (٢٢)، « مساكن طيبة » (٢٣)، « فواكه كثيرة » (٢٤)، « منافع كثيرة » (٢٥) ، « قُرًى ظاهرة » (٢٦)، قُرًى محصّنة » (٢٧)، « خُشُب مسنَّدة » (٢٨)، « أيمان علينا بالغة » (٢٩)، وغير ذلك كثير . من هنا كان كلام أبى حيان أدنى إلى السداد إذ قال : « والكبرى صفة لـ « آيات ربه » . ومثل هذا الجمع (يقصد جمع غير العاقل ، وهو « الآيات ») يوصف بوصف الواحدة (وهذا صحيح ، إذ الغالب فيه ذلك) . وحَسَّن ذلك هنا كونها فاصلة » (٣٠) .

وفيما يتعلق بكلمة « أخرى » فى قوله تعالى :«أفرأيتم اللات والعُزَّى * ومناة الثالثة الأخرى ؟ * ألكم الذكر وله الأنثى ؟ * تلك إذن قسمة ضِيزَى » (٣١)

يقول القرطبى : « العرب لا تقول للثالثة : أُخرى ، وإنما الأخرى نعت للثانية . واختلفوا فى وجهها ، فقال الخليل : إنما قال ذلك لوفاق رؤوس الآى، كقوله : « مآرب أخرى » ، ولم يقل : « أُخَر » . وقال الحسين بن الفضل : فى الآية تقديم وتأخير مجازها : « أفرأيتم اللات والعُزَّى الأخرى ومناة الثالثة ؟ ». وقيل : إنما قال : « ومناة الثالثة الأخرى » لأنها كانت مرتبة عند المشركين فى التعظيم بعد اللات والعزى فالكلام على نسقه » (٣٢) .

فهناك إذن من يقول إن الفاصلة قد استوجبت إفراد الوصف « أُخَر » فصار « أُخرى » (٣٣). كما استوجبت استعمال « أُخرى » لشىء ثالث ، فخرجت بهذا عن أصل استعمالها ، إذ هى لا تصف إلاَّ ما كان ثانيا لا ثالثًا . وهناك من قال إن «الأخرى» صفة للعُزَّى ، لكنها أخرت عن موضعها فجاءت بعد مناة. وهذا الرأى الأخير يسىء إلى النص القرآنى وبلاغته. ولو أخذنا به لصار الكلام ركيكًا وكأنه صنعة أعجمى لا يعرف العربية. وحاشا للَّه أن يكون كلامه بهذه الصفة. وكان ينبغى ألا يقول بهذا الرأى أحد ، وبخاصة أن الحجة التى بُنِى عليها هى حجة داحضة. ويكفى أن نستقرىء الأسلوب القرآنى واستخدامه لهذه الكلمة ليتبين لنا أن ما قالوه فيها عارٍ عن الصحة، إذ قد تكرر فيه ورود كلمة « الآخر » و « الأخرى » وجمعهما لما يقع ثالثا فى الترتيب، أو بعد ذلك .

ومن ذلك ما جاء فى سورة « التوبة » عن : ١- الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون مغرمًا ويتربصون بالمؤمنين الدوائر ، وكذلك الأعراب الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويجعلون إنفاقهم فى سبيل الله وصلوات الرسول قربة لهم عند الله ، ٢- والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ،

٣- وآخرين اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، ٤- وآخرين مُرْجَيْن لأمر الله (٣٤). فانظر كيف استُعْمِلت كلمة « آخرون » لكل من الفئتين الثالثة والرابعة .

وفى سورة « طه » نقرأ قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : « هى عصاى، أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى » (٣٥). وفيها ، كما هو واضح، قد وقعت كلمة « أخرى » وصفا لـ « مآرب »، التى ذُكِر قبلها أمران : التوكُّؤ على العصا ، والهشّ بها على الغنم .

وفى النص التالى نرى أن كلمة « آخرون » قد استعملت وصفًا لكلتا الفئتين الثانية والثالثة : « عَلِم أنْ سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » (٣٦) .

أما فى الآية التالية من سورة « الأعراف » فقد جاءت « أُخرى » بمعنى « الأخيرة »: «وقالت أولاهم (أى أولى الأمم الكافرة دخولاً فى النار) لأخراهم : ... » (٣٧) .

كذلك فقد تستخدم كلمة « الآخر » (ومؤنثها « الأخرى ») بمعنى « الأبعد » تحقيرًا وسبًّا .

وعلى هذا فإن استخدام كلمة « الأخرى » وصفا لـ « مناة الثالثة » قد جاء على أصله ، وليست الفاصلة هى التى استلزمته . فهى « أخرى » رغم أنها الثالثة فى الترتيب، وهى « أخرى » بمعنى « الأخيرة » لأنها ذُكرت آخر الأصنام الثلاثة ، وهى كذلك « الأُخرى » بمعنى « البُعْدَى » احتقارًا لشأنها وشأن عُبّادها . فانظر إلى بلاغة القرآن فى استعمال هذه الكلمة فى هذا الموضع ، وتعجَّب ممن يتطاولون على هذه البلاغة ويظنون أنهم قد وجدوا فيها شيئا يحتاج إلى تبرير ! تعالى أسلوب القرآن عن

ذلك .

وقد جاء فى « البحر المحيط » ردّا على من يقولون إن « آخر » و « أُخرى » لا يوصف بهما إلا الثوانى من الأشياء أن « لفظة آخر وأخرى يوصف به الثالث من المعدودات . وذلك نصٌّ فى الآية . ومنه قول ربيعة بن مكرم :

ولقد شفعتهما بآخر ثالث » (٣٨)

ولعلّ الزمخشرى هو أول من قال من المفسرين إن « الأخرى » فى الآية ذمّ لمناة (٣٩). وقد تعقبه أبو حيان قائلاً إن « لفظ آخر ومونثه أخرى لم يوضعا للذم ولا للمدح . إنما يدلان على معنى « غير » ، إلا أن من شرطهما أن يكونا من جنس ما قبلهما . لو قلت : مررتُ برجل وآخر لم يدل إلاّ على معنى « غير » ، لا على ذم ولا مدح » (٤٠). ولكننا لا نتكلم عن المعنى الذى وُضعت له هاتان اللفظتان فى الأصل، بل عن أحد المعانى التى صارتا إليها . كذلك فإن الذم فى هاتين اللفظتين لا يتحقق إلا باستعمالهما معرفتين بـ « أل » بينما أوردهما أبو حيان فى المثال الذى ضربه منكّرتين .

وقد يصح أن نذكر هنا ادعاءهم أن الآية قبل الأخيرة من قوله تعالى عمّن تلقى الرسول عليه السلام منه الوحى : « علَّمه شديد القوى * ذو مِرَّة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلّى * فكان قاب قوسين أو أدنى » كان ينبغى أن تكون : « ثم تدلّى فدنا » ، ولكن حدث تقديم وتأخير . ورغم أنهم لم يذكروا أن رعاية الفاصلة هى التى استلزمت هذا فيبدو لى أن ذلك كان فى أذهانهم ، وإلاّ فلماذا قالوا بالتقديم والتأخير إذا لم يكن هذا هو السبب؟ ومنطقهم أنه لكى يدنو الذى فى السماء فلابدّ أن يتدلّى، أى أن التدلى سبب الدنو، فهو من ثم يقع قبله . ولما كانت الفاء تفيد الترتيب، أى تلوّ ما بعدها لما قبلها ، كان المفروض أن يقال : « ثم تدلّى فدنا ». جاء

فى « جامع البيان » : « يقول تعالى ذكره : ثم دنا جبريل من محمد صلى الله عليه وسلم فتدلّى إليه . وهذا من المؤخر الذى معناه التقديم. وإنما هو : ثم تدلّى فدنا . ولكنه حسن تقديم قوله : « دنا » ، إذ كان الدنوّ يدل على التدلّى ، والتدلّى على الدنوّ، كما يقال : زارنى فلان فأحسن ، وأحسن إلى فزارنى ، وشتمنى فأساء ، وأساء فشتمنى، لأن الإساءة هى الشتم، والشتم هو الإساءة » (٤١). و « قال الجرجانى : فى الكلام تقدير وتأخير، أى تدلّى فدنا ، لأن التدلى سبب الدنوّ » (٤٢). و « قال ابن قتيبة : المعنى : تدلى فدنا ، لأنه تدلى للدنوّ ، ودنا بالتدلىّ » (٤٣) .

والحق أن ما يقوله هؤلاء العلماء يفتقر إلى الوجاهة والإقناع ، فإن الشخص إذا كان فى أعالى السماء ثم اقترب من الأرض فإنه يكون قد دنا . وبعد اقترابه من الأرض فإنه يتدلىّ أى ينزل إليها ، وحينئذ يصير أكثر دنوّا ، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله : « فتدلّى * فكان قاب قوسين أو أدنى ». ولعلّ عبارة الزجّاج التالية ترمى إلى هذا المرمى . قال : « دنا : بمعنى قرُب . وتدلّى : زاد فى القرب »، لكنه عاد فقال إن « معنى اللفظتين واحد » (٤٤) ، وهو ما لايبدو لنا مقنعا .

أما من جهة الفاصلة فإن هذا التقديم والتأخير المدعَّى لا يؤثر بشىء ، إذ إن كلا الفعلين : « دنا » و « تدلّى » ينتهى بألف ، فبأيهما خُتِمَت الآية تحققت لها الفاصلة، لأن فواصل السورة (ما عدا الآيات القليلة الأخيرة) على الألف كما نعلم : « هَوَى ، غَوَى ، يُوحَى ، القُوَى ، استَوَى ، الأَعْلَى، تدلّى... إلخ » .

نخرج من هذا بأن القول بأن مراعاة الفاصلة فى سورة « النجم » قد جرَّ إلى كسر قواعد اللغة أو إلى تغيير المعنى هو كلام مرسل على عواهنه، إذ أثبت التحليل للآيات محلّ الدعوى أن ذلك غير صحيح البتة .

إلاَّ أن من تكلموا عن مراعاة الفاصلة فى القرآن لم يقتصروا بطبيعة الحال على سورة « النجم »، بل شمل كلامهم القرآن كلَّه. والذى يرجع إلى الكتب التى تُعْنَى بهذا يجدها تعدِّد أنواع التغييرات التى تستلزمها الفاصلة فى الآية القرآنية . وقد بلغ بها شمس الدين بن الصائغ أربعين. ويستطيع الباحث أن يجد ملخصًا لما كتبه ابن الصائغ فى هذا الموضوع فى « الإتقان » للسيوطى » (٤٥). وفى « البرهان » للزركشى ذكر لعدد من هذه التغييرات (٤٦). وذلك غير ما تفرق فى كتب التفاسير. وفى العصر الحديث مثلا نجد د. عبد الفتاح لاشين قد عالج هذا الموضوع فى فصل من كتابه « الفاصلة القرآنية » عنوانه « خروج نظم الآية عن المألوف بسبب الفاصلة » .

وأحب أن نقف عند بعض ما قيل فى هذا السبيل خاصًّا بكسر القواعد اللغوية أو تغيير المعنى. فمن ذلك ما جاء فى « البرهان » عن استلزام الفاصلة تأنيث ما أصله أن يذكَّر، إذ ضرب مثلاً قوله تعالى فى الآية ٥٤ من « المدثر » : « كلا إنه تذكرة » (٤٧) . يريد أن يقول إن الأصل هو : « كلا إنها تذكرة » . والواقع أن الكلام فى الآية عن القرآن وأنه تذكرة ، فلذلك قال تعالى : « إنَّه (أى القرآن) تذكرة » ، وإن كان الضمير قد أُنث فى سورة « النازعات » فى آية شبيهة بهذه . لقد كان الكلام هناك عن عبوس الرسول صلى الله عليه وسلم عندما جاءه ابن أم مكتوم المسلم الأعمى الفقير وتلهيه عنه وتصديه فى ذات الوقت لبعض زعماء الكفَّار بغية عرض الإسلام عليهم لعلهم يدخلون فيه ، فقال القرآن له صلى الله عليه وسلم : « كلا ، إنها تذكرة * فمن شاء ذكره » (٤٨). والمعنى هو أن المسألة مسألة تذكرة، أو أن مهمتك لا تعدو أن تكون تذكرة للناس ، وليس عليك هداية هؤلاء القساة القلوب المغلقى الأذهان. فكما ترى ليس فى الآية الأولى مخالفة للأصل بتذكير ما حقّه

التأنيث (٤٩)، وإنما ذُكِّر الضمير فى « إنَّه » حسب جنس الاسم الذى يعود عليه .

ومما يذكرونه من النزول على مقتضى الفاصلة قوله تعالى عن يوم القيامة إنه « لا بَيْعٌ فيه ولا خِلال » (٥٠) ، إذ يدّعون أنه كان حقّ « خِلال » أن تجىء مفردة كما هى فى قوله تعالى : « لا بَيْع فيه ولا خُلّة ولا شفاعة » (٥١) . ولا ندرى كيف يجرؤون فيحاولون التحجير على الأسلوب القرآنى بالادعاء بأنه كان ينبغى أن يأتى على وتيرة واحدة فى الآيتين . إننا لو افترضنا أن « خلال » هنا جمع فليس فى الأمر أى شىء، إذ قد يغير صاحب الأسلوب الكلمة من موضع إلى موضع رغبة فى التنويع وبثًّا للحيوية فى أسلوبه ونفيا لملال السامعين أو القارئين . وعلى أية حال فإن « لا » النافية للجنس تجعل النفى فى الآيتين منصبا على الجنس كلّه، سواء كان التعبير عنه بالإفراد: « خُلَّة » أو بالجمع : « خِلال »، ومن ثم فلا فرق. هذا إن كانت كلمة « خلال » جمعا . ولكن إذا نظرنا إليها على أنها صيغة المصدر من الفعل « خالَّ » فمعنى ذلك أنها مفرد ، ومن ثم كان عراكهم فى غير معترك ! (٥٢)

وتصل الجرأة بهؤلاء إلى الادعاء بأنه كان الأحسن أن يُفْصَل بين حرف الجرّ فى الآية التالية : « ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » (٥٣) ، كأن يقال مثلا : « ثم لا تجدوا لكم علينا تبيعًا به » أو « ثم لا تجدوا لكم تبيعا به علينا » . وقد كان يكفى تحكيم الذوق السليم فى هذا الاستعمال القرآنى ليدرك الإنسان أن ذلك التركيب قد بلغ الغاية فى السلاسة والانسيابية . وهذا هو الفيصل فى الأمر (٥٤).

ونختم هذه الملاحظات بمناقشة ما ذكروه من أن رعاية الفاصلة اقتضت حذف الحرف الأخير من بعض الكلمات كـ « المتعال » فى قوله تعالى: «عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » (٥٥)، و « التناد » فى قوله جل شأنه : « ويا قوم ، إنى أخاف

عليكم يوم التناد » (٥٦) ، و « يَسْرِ » فى قوله عز من قائل : « والليل إذا يَسْر » ، بحذف الياء من الكلمات الثلاث. يقصدون أن المنقوص المعرف بـ « أل » تثبت ياؤه فى كل الأحوال ، وأن « يَسْرِ » هو فعل مضارع مرفوع فكان ينبغى إيراده بيائه . ومثله حذف ياء المتكلم فى أواخر بعض الآى (٥٧) .

وجوابنا على ذلك أن القرآن الكريم قد تكرر حذفه لياء المنقوص والمتكلم فى درج الآية أيضا لا فى آخرها فقط، مما يدل على أن المسألة ليست مسألة رعاية للفاصلة ، فإن كلا الأمرين جائز. وقد استعمل القرآن هذا فى مواضع ، واستعمل ذلك فى مواضع أخرى (٥٨). ومن أمثلة الحذف فى داخل الآية قوله تعالى : « أجيب دعوة الداع إذا دعانِ » (٥٩)، « واستمع يوم ينادى المنادِ من مكان قريب » (٦٠)، « يوم يَدْعُ الداعِ إلى شىء نُكُر » (٦١)، يا عبادِ، فاتقون » ، (٦٣) ، « يا عبادِ، لا خوف عليكم اليوم » (٦٣) .

أما حذف ، ياء « يَسْرِ » فسببها أن « إذا » الشرطية إن كانت لا تجزم عند قوم فهى تجزم عند آخرين ». جاء فى « شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك » : « أما إذا فالمشهور أنه لا يُجْزَم بها إلاَّ فى الشِّعر ، لا فى قليل من الكلام ولا فى الكلام إذا زيد بعدها « ما » خلافًا لزاعم ذلك . وقد صرّح بذلك فى « الكافية » فقال :

وشاع جزمٌ بإذا حمْلاً على متى ، وذا فى النثر لم يستعملا

وقال فى شرحها: وشاع فى الشعر الجزم بإذا حملا على متى. فمن ذلك إنشاد سيبويه :

ترفَّع لى خِنْدِفٌ ، والله يرفع لى نارًا إذا خمدت نيرانهم تَقِدِ

وكإنشاد الفراء :

استغـن ما أغناك ربُّك بالغنـى وإذا تُصِبْـكَ خصاصـة فتجمَّـلِ

ولكن ظاهر كلامه فى « التسهيل » جواز ذلك فى النثر على قلة ، وهو ما صرّح به فى « التوضيح » فقال : هو فى النثر نادر ، وفى الشعر كثير . وجعل منه قوله عليه الصلاة والسلام لعلى وفاطمة رضى الله عنهما : إذا أخذتكما مضاجعكما تُكَبّرا أربعًا وثلاثين ... الحديث » (٦٤) .

وبعد ، فإن مثل هذه الادعاءات من جانب بعض علماء القرآن والبلاغيين قد أعطت لواحد مثل ديفين ستيورات صاحب مقال « Saj' in the Quran » (٦٥) الفرصة لكى يلمز القرآن ، وذلك فى معرض ردّه على أولئك الذين يرفضون من علمائنا أن يطلقوا على الفواصل القرآنية كلمة « سجع » على أساس أن الشكل فى القرآن تابع للمضمون ، أما فى السجع فالمعنى يتبع الشكل ، إذ يقول « إن النتيجة هنا تنبع منطقيا من مقدمتيها ، بيد أن المقدمتين خاطئتان . إن من السهل على غير المسلم أن يقول إن المقدمة الأولى يمكن أن تكون خطأ ما دامت هناك أمثلة كثيرة فى القرآن على استخدام الحيل الشكلية التى يتبع فيها المعنى اللفظ على نحوٍ ما لأسباب جمالية أو بلاغية » . ثم يتساءل فى خبث : « ألم يكن الله قادرًا على التعبير عن المعنى المراد وصبّه فى ذات الوقت فى قالب فنى كالسجع ؟ » (٦٦) . إن مقتضى كلام هذا المستشرق هو أن الآيات التى يشير إليها كانت قد أرادت فى الأصل معنى معينا ، ثم إنها لهذا السبب أو ذاك قد ذكرت معنى آخر مخالفًا لما كانت أرادته . فأين ذاك فى القرآن ؟ صحيح أن فى القرآن مثلا حذفا ، والتفاتا من ضمير إلى ضمير أو من زمن إلى زمن ، وتقديما وتأخيرا . لكن هذا موجود فى وسط الآيات بعيدا عن الفاصلة مثلما هو موجود عند

التوافقات الإيقاعية فى آخرها ، أى أن هذه التوافقات ليست دائما هى السبب فى ذلك . أيا ما يكن الأمر فإن المعنى لا يتغير ، بل كل ما فى الأمر أن القرآن فى مثل هـذه الحالات يتبع أسلوبا آخر من الأساليب الكثيرة التى تتضمنها اللغة ، تحقيقا لغرض بلاغى ، جمالى أو معنوى ، لا يوفره الأسلوب المتروك إلى غيره . أى أن النتيجة فى هذه الحالة هى تقوية المعنى وإبرازه فى ثوب أبهى وأجذب للأنظار وأقوى تأثيرًا لا إخضاع المعنى لسلطان اللفظ ، أى التضحية به أو بشىء منه فى سبيل مكسب شكلى كما يزعم الكاتب (٦٧) .

ويؤكد سيّد قطب هذه الفكرة قائلا إن طبيعة الأسلوب القرآنى هى الجمع بين أداء المعنى وتنغيم الإيقاع دون إخلال بهذا على حساب ذاك ، شأنه شأن كل ما هو من صنع الله . فالجمال فى الكون كله يتناسق مع الوظيفة ويؤاخيها (٦٨) .

الهوامش

١- السيوطـى/ الإتقان فى علوم القرآن / دار الفكر/ بيروت / ١٣٩٩ هـ-١٩٧٩م / ١ / ٩٩ .

٢- انظر تفسير القرطبى / ١٧/ ٩٩ ، والبحر المحيط / ٨ / ١٦٠ ، وابن الجوزى / زاد المسير / ٨ / ٧١ . وهذا رأى من آراء .

٣- البقرة / ١٢٦ .

٤- البقرة / ١٦٤ .

٥- النساء / ٣٢ .

٦- النساء / ١٢٤ .

٧- الأنعام / ١٤١ .

٨- الأنعام / ١٤٢ .

٩- الأعراف / ١٤٨ .

١٠- الأعراف / ١٦٠ .

١١- يوسف / ١٠١ .

١٢- إبراهيم / ٣٧ .

١٣- النور / ٤٣ .

١٤- غافر / ٦٤ .

١٥- فُصِّلت /٥٠ .

١٦- الواقعة / ٥٤ .

١٧- وإن عاد فقال عقيب ذلك إنه « يجوز نعت الجماعة بنعت الأنثى » (يقصد : بنعت المفردة المؤنثة) / تفسير القرطبى / ١٧/ ٩٨ - ٩٩ . وانظر ابن الجوزى / زاد المسير / ٨ / ٧٢ ، حيث يقول إن قوله تعالى فى الآية ١٨ من سورة « طه » : « مآرب أخرى » معدول به

عـن « مآرب أُخَر » حتى تتوافق رؤوس الآى .

١٨- البقرة / ٢٤٥ .

١٩- النساء / ٩٤ ، والفتح / ١٩ ، ٢٠ .

٢٠- الأنعـام / ١٩ . وهذا الشاهد وأمثاله ردّ على ابن الجوزى ، الذى يرى أن « مآرب أخرى » معدول به عن « مآرب أُخَر » للفاصلة .

٢١- الأعراف / ١٣٧ ، والإسراء / ١١٠ ، وطه / ٢٠ ، والحشر / ٢٤ .

٢٢- التوبة / ٢٥ .

٢٣- التوبة / ٧٢ ، والصف / ١٢ .

٢٤- المؤمنون / ١٩ .

٢٥- المؤمنون / ٢١ .

٢٦- سبأ / ١٨ .

٢٧- الحشر / ١٤ .

٢٨- المنافقون / ٤ .

٢٩- القلم / ٣٩ .

٣٠- البحر المحيط / ٨ / ١٦٠ .

٣١- النجم / ١٩ - ٢٢ .

٣٢- تفسيـر القرطبـى / ١٧ / ١٠٢ . وانظـر كذلك « زاد المسير » لابن الجوزى / ٨ / ٧٢ - ٧٣ ، و « روح المعانى » للألوسى / ٢٧ / ٥٦ .

٣٣- سبق أن رددنا على هذا الادعاء قبل قليل بما يغنى عن إعادة الردّ هنا .

٣٤- انظر الآيات / ٩٧ - ١٠٦ .

٣٥- طه / ١٨ .

٣٦- المزمل / ٢٠ .

٣٧- الأعراف / ١٨ .

٣٨- أبوحيان / البحر المحيط / ٨ / ١٦٢ . على أنه مادام العرب فى الجاهلية ، كما جاء فى « الأصنام » لابن الكلبى ، كانوا يمدحون هذه الأصنام عند طوافهم بالكعبة بقولهم : « واللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * إنهن الغرانيق العلا * وإن شفاعتهن لترتجى » (الأصنام / ١٩) ، فليس هناك إذن أى مجال لما قيل حول رعاية الفاصلة فى الآية الكريمة .

٣٩- انظر « الكشاف » / ٤ / ٣٠ .

٤٠- البحر المحيط / ٨ / ١٦٢ .

٤١- الطبرى / جامع البيان / مجلد ١٣ / ج ٢٧ / ٤٤ .

٤٢- القرطبى / ١٧/ ٨٩ .

٤٣- ابن الجوزى / زاد المسير / ٨/ ٦٥ .

٤٤- نفس المرجع والجزء والصفحة .

٤٥- فى صفحتى ٩٩ - ١٠٠ من الجزء الثانى من الكتاب .

٤٦- انظر « البرهان » للزركشى / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / عيسى البابى الحلبى / ط ٢ / ١ / ٦٠ - ٦٧ .

٤٧- السابق / ١ / ٦٥ .

٤٨- عبس / ١١ - ١٢ .

٤٩- قارن د . عبد الفتاح لاشين بين الآية ٥٤١ من « المدثر » والآية ٢٩ من « الإنسان »، وليس بينهما وجه للمقارنة ، إذ إن تأنيث كلمة « تذكرة » فى السورة الأخيرة لم يقع فى آخر الآية . والصواب هو مقارنتها ، كما فعلتُ هنا ، بآية سورة « عبس » . انظر كتابه « الفاصلة القرآنية » / دار المريخ / الرياض / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م / ٢٥ - ٢٧ .

٥٠- إبراهيم / ٣١ .

٥١- البقرة / ٢٥٤ .

٥٢- انظر فى ذلك « البرهان » / ١ / ٦٤ ، و « الإتقان » / ٢ / ١٠٠ ، ود . عبد الفتاح لاشين / الفاصلة القرآنية / ٣١ .

٥٣- الإسراء / ٦٩ .

٥٤- انظر فى هذا الادعاء « البرهان » / ١ / ٦٢ ، و « الإتقان » / ٢ / ١٠٠ ، و « الفاصلة القرآنية » / ٢٧ .

٥٥- الرعد / ٩ .

٥٦- غافر / ٣٢ .

٥٧- انظر فى ذلك « إعراب القرآن » لأبى جعفر النحاس / تحقيق زهير غازى / وزارة الأوقاف العراقية / ٣ / ٦٩٤ ، وابن خالويه / إعراب ثلاثين سورة من القرآن / دار الحكمة / دمشق / ٧٤ ، و « البرهان » / ١ / ٦٢ ، و « الإتقان » / ٢ / ٩٩ ، و « الفاصلة القرآنية » / ٢٦ - ٢٩ .

٥٨- انظر فى جواز حذف ياء المنقوص وياء المتكلم « الكتاب » لسيبويه / تحقيق عبدالسلام محمد هارون / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م / ٤ / ١٨٣ وما بعدها . وفى جواز حذف ياء المنقوص فى حالتى الرفع والنصب ، سواء دخلت عليه « أل » أو لا ، انظر « شذا العرف فى فن الصرف » لأحمد الحملاوى / المكتبة الجديدة / بيروت / ١٩١ . وقد ذكر أبو حيّان (البحر المحيط / ٨ / ١٧٥) أن « الياء » قد حُذِفت من « الداع » فى « يوم يَدْعُ الداع إلى شىء نُكُر » تخفيفا . وفى جواز حذف ياء المتكلم إذا كانت مضافًا إليه وبقاء الكسرة فى الحرف الذى قبلها للدلالة عليها ، انظر محمد محيى الدين عبد الحميد فى تعليقه على كلام ابن عقيل عما يحدث للاسم المضاف إلى ياء المتكلم إضافةً محضة (شرح ابن عقيل / دار العلوم الحديثة / بيروت / ٢ / ٨٩ / هامش ٢) .

٥٩- البقرة / ١٨٦ .

٦٠- ق / ٤١ .

٦١- القمر / ٦ .

٦٢- الزمر / ١٦ .

٦٣- الزخرف / ٦٨ .

٦٤- شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك / دار إحياء الكتب العربية / ٤ / ١٣ - ١٤ . وانظر كذلك د . فتحى بيومى حمودة / أسلوب الشرط بين النحويين والبلاغيين / دار البيان العربى / جدة / ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م / ١١٢-١١٣ .

٦٥- نشر هذا المقال فى « Journal of Arabic Literature » / عدد ٢١ / ١٠١ - ١٣٩ . وقد ترجَمْتُه بعنوان « السجع فى القرآن » مع تعليقاتٍ ودراسة .

٦٦- ديفين ج . ستيوارت / السجع فى القرآن / ترجمة وتعليق ودراسة د . إبراهيم عوض / الطائف / ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م / ١٤ .

٦٧- نقلاً ، بتصرف يسير ، عن ردّى على آراء الكاتب الواردة فى مقاله المذكور ، وذلك فى ذيل ترجمتى لهذا المقال / ٩٦- ٩٧ .

٦٨- انظر سيد قطب فى « ظلال القرآن » / ٦ / ٣٤٠٩ ، و « التصوير الفنى فى القرآن » / دار الشروق / بيروت والقاهرة / ٨٦ .

آيات ربه الكبرى » على أن المقصود : « لقد رأى الكبرى من آيات ربه » ، لكن الفاصلة هى التى أدت إلى هذا التقديم والتأخير » (٢) .

والواقع أنه ليس هناك دليل على أن هذا هو المراد ، وبخاصة أن الآية على وضعها الذى وردت به لا تحتاج إلى شىء من هذا . والأفضل عندى أن نأخذها على ما هى عليه ونقول إنه عليه السلام قد رأى عند سدرة المنتهى بعضا من آيات ربه الكبرى . أما على توجيههم فإن المعنى هو أنه صلى الله عليه وسلم قد رأى كبرى آيات ربه ، وهو ما يفيد أن آيات الله فيها الصغير وفيها الكبير ، مع أنها كلها كبرى . وهذا ما تعنيه الآية على وضعها الذى وردت فيه ، فـ « الكبرى » هى صفة لكل آيات اللّه ، وليست صفة لفئة منها فقط .

ولا يقولنَّ قائل إن فى دخول « مِنْ » التبعيضية على المفعول به فى جملة مثبتة (وهو « آيات ربه ») غرابةً . ذلك أن لهذا التركيب نظائر فى القرآن الكريم ، ومنها : « وارزق أهله من الثمرات » (٣) « وبثَّ فيها من كلّ دابة » (٤) ، « واسألوا الله من فضله » (٥) ، « ومن يَعْمَلْ من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة » (٦) ، « كلوا من ثمره » (٧) ، « كلوا مما رزقكم الله » (٨) ، « وكتبنا له فى الألواح من كل شىء » (٩) ، « كلوا من طيبات ما رزقناكم » (١٠) ، « ربِّ ، قد آتيتنى من الملك وعلّمتنى من تأويل الأحاديث » (١١) ، « ربّ ، إنى أسكنتُ من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع » (١٢) ، « وينزّل من السماء من جبال فيها من بَرَد » (١٣) ، « ورزقكم من الطيبات » (١٤) ، « ولنذيقنّهم من عذابٍ غليظ » (١٥) ، « فشاربون عليه من الحميم » (١٦) . بل لقد ورد هذا الفعل والمفعول أعينهما فى الآية الأولى من سورة « الإسراء » ، حيث يقول عز شأنه :

آيات ربه الكبرى » على أن المقصود : « لقد رأى الكبرى من آيات ربه » ، لكن الفاصلة هى التى أدت إلى هذا التقديم والتأخير » (٢) .

والواقع أنه ليس هناك دليل على أن هذا هو المراد ، وبخاصة أن الآية على وضعها الذى وردت به لا تحتاج إلى شىء من هذا . والأفضل عندى أن نأخذها على ما هى عليه ونقول إنه عليه السلام قد رأى عند سدرة المنتهى بعضا من آيات ربه الكبرى . أما على توجيههم فإن المعنى هو أنه صلى الله عليه وسلم قد رأى كبرى آيات ربه ، وهو ما يفيد أن آيات الله فيها الصغير وفيها الكبير ، مع أنها كلها كبرى . وهذا ما تعنيه الآية على وضعها الذى وردت فيه ، فـ « الكبرى » هى صفة لكل آيات اللّه ، وليست صفة لفئة منها فقط .

ولا يقولنَّ قائل إن فى دخول « مِنْ » التبعيضية على المفعول به فى جملة مثبتة (وهو « آيات ربه ») غرابةً . ذلك أن لهذا التركيب نظائر فى القرآن الكريم ، ومنها : « وارزق أهله من الثمرات » (٣) « وبثَّ فيها من كلّ دابة » (٤) ، « واسألوا الله من فضله » (٥)، « ومن يَعْمَلْ « من » الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة » (٦) ، « كلوا من ثمره » (٧) ، « كلوا مما رزقكم الله » (٨) ، « وكتبنا له فى الألواح من كل شىء » (٩) ، « كلوا من طيبات ما رزقناكم » (١٠)، « ربِّ ، قد آتيتنى من الملك وعلّمتنى من تأويل الأحاديث » (١١)، « ربّ ، إنى أسكنتُ من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع » (١٢)، « وينزّل من السماء من جبال فيها من بَرَد » (١٣) ، « ورزقكم من الطيبات » (١٤) ، « ولنذيقنّهم من عذابٍ غليظ » (١٥) ، « فشاربون عليه من الحميم » (١٦) . بل لقد ورد هذا الفعل والمفعول أعينهما فى الآية الأولى من سورة « الإسراء »، حيث يقول عز شأنه :